الفصـــل الثانى

إشارات الهجمة الإمبريالية على التعليم العربى

(١) إلا التعليم يا بيريز !!

(٢) إلا التعليم يا أمريكا : (تعليق على تقرير الكونجرس).

(٣) إصلاح التعليم من أجل أمركة العقول .

(٤) مبادرة عربى جسور (نحو إطلاق الحرية الأكاديمية فى الجامعات الأمريكية) .

(٥) كتاب (رحلة إلى القدس) وقصة نشره . تأليف : جريس هاسيل.

(٦) العنصرية فى الجامعات الإسرائيلية .

(٧) محاكمة شارون على جرائمه ضد الإنسانية .

(٨) صناعة الهولوكوست ـ تأملات فى استغلال الآلام اليهودية

تأليف ج. فينكلستاين

(١) إلاّ التعليم يا بيريز !!

علمتنا التجارب الداكنة والأحـــداث الفاجعة أن التعامل مع إســـــرائيل وقادتها يدفعنا إلى الالتزام بالمثل العربى القائل (حسن الظن ورطة ، وسوء الظـــن عصمة) . تذكرت هـــذه المقولة بعـــد قراءتى لما ورد فى صحيفة (الأهالى) بتاريخ ٨ فبراير ١٩٩٥ من إنه فى لقاء القمة الرباعى فى طابا شرح شيمون بيريز خطة ، تتضمن التوصل إلى عمل برنامج تعليم موحـــد للشرق الأوسط بالكامل بواسطة الكمبيوتر وتحت إشـــراف إســـرائيل !! ومع ما أصـــابنى من ذهول جـــراء مثل هـــذا الخبر ، إلا أننى رأيـــت أن ما اعترى الخبر من اقتضاب وغموض جعلـــنى لا أصـــرف مزيـــدًا مـــن الانشغال به حتى تتضح بعض معالمه .

ثم تجيئ مجلة (روزاليوسف) بتاريخ ١٣/٢/١٩٩٥ ، أى بعد أسبوع من الأهـــالى فتنشر فى صفحتها الأولى ملخصًا عن تقرير للسفير المصرى فى تل أبيب ، يـــورد فيـــه سيادته « أن صحيفة دافار أشارت إلى لقاء الوزيرين عمرو موسى وشيمون بيريز مـــع أربعة من كبار المسئولين الذين يمثلون أكبر أربع شركات للكمبيوتر فى أوروبا لبحـــث فكرة بيريز بشأن توسيع استخدام برامج الكمبيوتر فى جهاز التعليم فى الشرق الأوسط، وأضافت الصحيفة الإسرائيلية أن الوزير عمرو موسى أبدى اهتمام مـــصر الـــشديد بذلك، وتم الاتفاق على معاودة اللقاء بين الأطراف الستة فى شهر فبراير .

ومع إدراكنا لما قد تفرضه الديبلوماسية من مجاملات ، ولما قد تحمله إمكانـــات الكمبيوتر من مردود على فاعلية العملية التعليمية ، إلا أن انطلاق المبادرة والمبادأة من قيادة إسرائيلية أثار فى نفسى كثيرًا من التوجس والريب والشكوك ، وبكل ســـذاجة

المواطن العادى يضطرب عقلى ووجدانى بالتحـــذير من أنه قد يكون وراء الكمبيوتر ما وراءه ، وكمعلم لا ينكر دور الكمبيوتر فى مهنته إلا أن المشروع مع ما يحمله مـــن قضية حق ، يخشى عليه كذلك من أن يتلبسه الباطل وقد امتدت خشيتى إلى الظن بأننا على عتبات سوق شرق أوسطية للتعليم تحت دعاوى التعاون الإقليمى فى مجال التطور التكنولوجى للتعليم فى مصر وفى غيرها من الأقطار العربية بقيادة إسرائيل ومعاونيها من الشركات المتعدية الجنسية .

لقد علمتنا التجارب الداكنة والأحداث الفاجعة أن إسرائيل تطرح أحلامهـــا فى التوسع والهيمنة على امتداد المساحة من النيل إلى الفرات ، وتنتقل بها مـــن مـــستوى المناورة والخداع والتمويه والتزيف ، وغير ذلك مما يشعر بالتمسكن حتى التمكن كما يقال حتى يبلغ مرحلة العدوان والاحتلال للأرض والقتـــل والتعـــذيب والاضـــطهاد وممارسة كل صور الاستعلاء والحقد العنصرى بالمخادعة والغدر . تحقق حلم هرتـــزل من خلال وعد بلفور ، وهجرة اليهود المكثفة إلى أرض فلسطين تحت الزعم بأنها وطن بلا شعب تبريرًا لاغتصابها حتى تصبح لبنى إسرائيل وهم شعب بلا وطـــن . وادعـــت إسرائيل بأنها تريد السلام مع جيرانها ، لكنهم هم الرافضون ، ولما قبلوا الـــدخول فى عملية السلام انقلبت من التمسكن إلى التمكن ، ومن شروط الأرض مقابل السلام ، إلى الضغط للتفاوض بشروطها لضمان أمن إسرائيل أولا وأخيرًا حتى لو اقتضى الأمـــر التهديد بالحرب .

ثم ألم تكن السوق الشرق أوسطية حلمًا من أحلام بيريز كما ورد فى كتابه عـــن الشرق الأوسط الجديد وقد وقعت أعيننا على هذا الحلم أول ما وقعـــت فى ســـطور بإحدى الصحف القومية من أجل أرض مصر الخضراء . وبالمناورة والخديعة والتزييف ووسط صيحات المؤيدين والمحذرين يتعالى هدير السوق حتى نواجهها حقيقة عالمية فى الدار البيضاء وفى «دافوس» بسويسرا ، وسوف تستوى موجًا متعاظمًا فى اجتماعات الأردن وقطر وغيرها ، فقد حدث التمكن فى غفلة المشاركين من ضحايا العرب ممـــن يخشى عليهم من الغرق .

وأتساءل هل قضية استخدام الكمبيوتر من خلال خطة موحدة للتعليم فى الشرق الأوسط واحدة من الخدع التى تحاول بها إسرائيل أن تخترق نظام تعليمنا ؟ إن الكمبيوتر ليس مجرد جهاز ، وإنما هو فى الوقت ذاته برامج تحمل مضامين معرفية فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والقيم والتوجهات والرؤى نحو الحاضر والمستقبل ويا ويلنا لو تم اختراق هذه الجهة من خلال الأسلوب الصهيونى بدءًا من التمسكن حتى التمكن ونحن نعتز بما يبذل من جهود فى تطوير نظامنا التعليمى لكى يصبح سلاحًا من أسلحة أمننا القومى ، ودفاعًا عن هويتنا الحضارية العربية الإسلامية ، وضمانًا لتماسكنا الوطنى ، وانطلاقًا نحو الإسهام فى توفير النماء والرخاء لمصر بشرًا وموارد .

ومهما كان مصير عملية السلام والذى لن يتحقق إلا إذا كان عادلاً أولاً وشاملاً ثانيًا ، فإنه مما يستحق التنبه إليه هو أن الصهيونية عقيدة تتصارع مضمونًا ووسائل مع عقيدتنا الحضارية وهويتنا القومية الإنسانية وتختزل العقيدة الصهيونية فى مقولات مؤسسها هرتزل ، الذى كان يؤكد شعار (القوة فوق الحق) كما يؤكد شعار (السلام المسلح) وإلى أن التآخى بين البشر ضرب من المستحيل إلى أن الإنسان الذى يخترع مادة شديدة الانفجار يعمل لأجل السلام أكثر من ألف داعية إلى اللطف والرفق واللين ، وهو صاحب نظرية (التنكر البيئى) حيث يمكن للصهيونية الانتقال إلى أرض الميعاد ، ثم عليها أن تحرص على البقاء فيها ريثما تتحول (الزعانف إلى أرجل حقيقية) أى كما أشرنا فى مطلع هذا المقال الانتقال من (التمسكن إلى التمكن) .

والخلاصة أن أزمتنا مع إسرائيل ليست مقتصرة على إنهاء الاحتلال وتحرير الأرض وإنما فى نوعية الثقافة العنصرية العدوانية المستعلية لشعب الله المختار . وهنا يتعدى الصراع مجال الحدود ليدخل فى مجال الوجود وإمكانية التفاعل الإنسانى المثمر بين الثقافتين . ولن يتحقق ذلك بيننا وبينهم حتى تتخلى إسرائيل نهائيًّا عن ثقافتها العدوانية المستعلية ، والتى لا تعرف إلا السلام المسلح الذى يقوم على التهديد والوعيد والتأنيب للغير من الجيران العرب .

ونعود إلى البرنامج الموحد للتعليم الذى يطرحه بيريز ونتساءل أى مضمون ثقافى ينقله ، وأى قيم يبشر بها ، وأى تفاعل حضارى يدعو إليه ؟ وإدراكًا منـــا لطبيعـــة العقيدة الصهيونية السائدة لا بديل أمامنا إلا التوجس والتحسب لكل دعوة تصدر من قيادتها حين تحاول اختراق نظامنا التعليمى ، تحت أية دعـــاوى ظاهرهـــا التحـــديث وباطنها احتمالات التلويث لنسيج حضارتنا ومعالمه وقيمنا وخصوصيتها العربية .

ولابد لنا من الإشادة هنا بأن جبهة النظام التعليمى لم تزال بمنأى عن الاختراقات الصهيونية التى تعرضت لها بعض القطاعات الأخرى ، فلم يحدث حتى الآن اتـــصالات أو مشاورات رسمية أو غير رسمية مع قياداتنا التعليمية ، ولم يحدث تبادل للزيـــارات أو الخبرات بين المسئولين فى مؤسسات التعليم العام أو الجامعى ، ويظل الجسم التعليمـــى حريصًا فى الحفاظ على مناعته ، وعلى قدرته فى التعـــاون والإفـــادة مـــن الخـــبرات والتكنولوجيات المتقدمة من مصادرها العالمية الرئيسية فى الدول الأصلية المنتجـــة لهـــا سواء فى الغرب أو فى الشرق الآسيوى ، كلما اقتضى الأمر ، وفى ضوء خبراتنا والثقة المتبادلة بيننا وبينهم ، وعلى أساس من سياساتنا التعليمية التى تسعى لتحقيـــق حريـــة الوطن وانتماء المواطن ، ولا شك أن لنقابة المعلمين دورها الخطير فى تعزيز مقومـــات المناعة ضد عوامل التلوث لثقافة معلمينا أيًا كان مصدرها .

وستظل مناهجنا تؤكد على خصوصية حضارتنا العربيـــة الإســـلامية ، وأهميـــة التعاون والتكامل التعليمى والثقافى بين أقطار الوطن العربى ، رغم كـــل الـــصعوبات والأزمات ، وعلى الإيمان بأن السلام الذى تحقق فى مصر إنما يكمله ويدعمه الـــسلام العادل والشامل المتمثل فى تحرير الأرض العربية كلها وانطلاقًا من أن الأمن القـــومى العربى لا يتجزأ ولا ينبغى أن يتعرض للتهديد من أية قوة تمتلك سلاحً نوويًّا ينجم عن التخويف به تعويق مسيرة التقدم والنماء فى تعليم أبنائنا وبناتنا كما نختار .

وأخيرًا نكرر القول : « إلا فى التعليم يا بيريز أو غير بيريز ؟ » .

(٢) إلاّ التعليم يا أمريكا !!
تعليق على تقرير الكونجرس

لقـــد أقلقنى ملخص التقـــرير الذى قامت بعرضه صحيفة (الأسبوع) بتـــاريخ ٢٠٠٣/١٢/٢٥ والذى يقدم لنا (خطة واشنطون لتغيير المناهج التعليميـــة فى مـــصر والعالم العربى) ، والتى صاغتها مجموعة من السياسيين الأمريكيين (مجموعـــة مـــن ١٩ عضواً) ، وقد تصدت لمعالجة (مفهوم الجوانب النفسية للإرهاب الإسلامي) وقامـــت برفع تقريرها إلى جهاز الأمن القومى الذى أحاله بدوره إلى الرئيس الأمريكى فوافـــق عليه. بيد أنه قرر تأجيل إبلاغه للدول العربية ، وإلزامها بتنفيذ مقرراته كاملة ، بعد أن ينتهى من مغامراته العسكرية بضرب العراق ، وتغيير نظام الحكم فيه .. وحينئذ يصبح المناخ ملائماً لتجد الأنظمة العربية نفسها مرغمة على القبول بتوجهاته .

وعلى موجة الإمبريالية الأمريكية نفسها ، يأتى فى العدد ذاته المقال الآخر بعنوان (تدخل أمريكى صارخ فى الشئون الداخلية لمصر والمنطقة) ، ويدور حول ما تعتزمه هيمنة الرئيس بوش من إقامة هيئة للإشراف والرقابة على إنفاق المعونات الأمريكية لمصر ولغيرها فى الأغراض المخصصة لها وفى إطار خدمة المصالح الأمريكية ، مع فرض عقوبات على من يحيد عن ذلك الإطار. كذلك يشير المقال إلى ما تقدمت به الخارجية الأمريكية من دراسة لتكوين إدارة حقوق الأقليات ، وإنشاء مكتب لها فى مصر يعنى بحقوق ما تعتبره (أقلية) من الإخوة الأقباط فى وطن المصريين جميعاً. وسوف تكون هى الهيئة الرسمية المنوط بها تلقى شكاوى ومقترحات مواطنينا من أقباط مصر!! وقد آن الأوان لأن تترك أمريكا إبراز هذه الورقة الخاسرة فلا هى حمراء ولا صفراء فى الملعب السياسى معنا .

ولعل كل من قرأ هذين المقالين من أبناء المحروسة وبناتها قد أصابه الفزع وتولاه الدوار من رأسه إلى قدميه ، وهو يصيح هل بلغ الطغيان البوشى هذا الحد من الاستهانة بقدر مصر وقيمتها وقامتها ؟!! وفى جميع الأحوال ينبغى أخذ ما ورد فى هذين التقريرين بأنه جد فى جد ، بل إن ما ورد فيهما من هزل على أنه جد أيضاً. وعلينا أن نعبئ جميع طاقاتنا ومؤسساتنا الرسمية والشعبية لمواجهة تلك التوجهات الجائرة والفاحشة ، بكل ما أوتينا من وسائل الدفاع والمقاومة والنضال .

ويعنينى بحكم المهنة أن أتناول هنا المزاعم والافتراءات على التعليم فى مصر ، مما ورد فى تقرير (خطة واشنطون لتغيير المناهج التعليمية فى مصر وفى العالم العربى) والقائمة على افتراض فاسد بأن كثيراً مما يرد فى مناهجنا يولد الكراهية لأمريكا وللغرب ، وتترسخ من خلال آثاره النفسية (بذور الإرهاب لكل ما هو غير مسلم من اليهود والمسيحيين) ولذلك يقتضى القضاء على تلك الآثار النفسية السلبية ، والعمل على إيجاد صيغة ملزمة للتعاون بين الدول العربية والولايات المتحدة لإجراء التغيرات فى مختلف مناهج التعليم وعبر مختلف مراحله ، بدءاً من المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية. وعلى هذا الأساس – على حد تعبير التقرير– (يجب رفض أية احتجاجات من قبل البعض على هذه السياسة الأمريكية الجديدة بادعاء أن ذلك يمثل تدخلاً فى السيادة الوطنية لهذه الدول) .

وقبل الدخول فى تفاصيل أهم التوصيات (الملزمة) فى هذا التقرير ، أتذكر مقالاً كتبته فى إحدى الصحف منذ عدة سنوات بعنوان (إلاَّ التعليم يا بيريز) وكان وقتها وزير الخارجية فى إسرائيل ، وداعياً فصيحاً إلى ما عرف باسم (مشروع السوق الشرق أوسطية) . وحدث أن تقابل مع أحد كبار المسئولين المصريين، وتحدث معه فى إمكانية إنتاج برمجيات تعليمية مشتركة تستخدم فى التدريس فى كل دول الشرق الأوسط العربية وإسرائيل . فلما قرأت الخبر صاح قلمى غاضباً (إلاَّ التعليم يا بيريز) .

ويحمد للمسئولين عن تعليمنا أنه ظل بمنأى عن أية تأثيرات إسرائيلية مباشرة أو غير مباشرة ، وكانت سياسة التعليم صريحة بأنه لا داعى إطلاقاً لأن يذهب أى أحد

من قيادات التعليم ، أو أن تستقبل أى أحد من إسرائيل ، فتعليمنا أمانة فى أعناق المسئولين المصريين وحدهم .

واليوم يزعق قلمى صارخاً غاضباً (**إلاَّ التعليم يا أمريكا**) .

وسيظل تعليمنا رغم هذا التقرير الجديد ، ومهما مورس من ضغوط ، يخط مسيرة تطويره مشروع مصر القومى الأكبر ، كما سيظل جبهة من جبهات الأمن القومى بمختلف أبعاده ، كما يؤكد ذلك السيد رئيس الجمهورية فى مناسبات مختلفة . وستتوالى جهود تطويره وتحديثه وتفاعله مع متغيرات العصر فى ضوء حاجاتنا الإنمائية وخصوصيتنا الحضارية والثقافة المتجددة ، وقيمها وأخلاقياتها القومية والإنسانية . هذا فضلاً عما نقيمه نحن من جسور التفاعل الإيجابى أخذاً وعطاء مع مختلف الحضارات والثقافات ، ومع الثورات المعرفية العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية والاتصالية .

ومع ما ينسبه هذان التقريران من إسناد الكراهية المتولدة نحو الولايات المتحدة والغرب لنظم تعليمنا ، أشير إلى ما جرى حديثاً من استطلاع للرأى حول رؤية دول العالم للسياسة الخارجية الأمريكية ، وموقفها من الاستعداد لاجتياح العراق . لقد جاءت نتائجه مشيرة إلى ازدياد كراهية دول العالم ، بما فيها بعض الدول الأوربية الصديقة ، للسياسة الأمريكية الخارجية ، وتفردها باتخاذ قرارات مصيرية . فالقضية إذاً ليست مناهج التعليم فى الدول العربية والإسلامية هى التى عكرت المياه الأمريكية ، كما ورد فى قصة الذئب والحمل المشهورة .

والحاصل أن مشاعر الكراهية تتنامى مع شعوب العالم النامى لأسباب موضوعية من جراء صدمات العولمة ، وشروط السوق الطليقة ، وزعزعة الاقتصادات الوطنية ، واستفحال ظواهر الفقر والمديونية لدى تلك الشعوب .. هذا فضلاً عن السعى إلى تنميط ثقافاتها وانتهاك سيادتها الوطنية ، حتى أصبحت الشعوب فى خدمة الشركات المتعدية الجنسية ، بدل أن تكون تلك الشركات فى خدمتها ، حسب المستهدف من المنظور العالمى الإنسانى .

لقد تحولت (القرية الكونية) Global Village ، كما تبين لبعض المنصفين مـــن مفكرى تلك القرية إلى تسميتها بالقـــرية (الكونية التخريبيـــة) Global Pillage ، وقد أدركت الشعوب ومنظماتها المدنية ما يتهدد حياتها من ضروب المخاطر والمعاناة ، فأسمعت احتجاجها الصارخ فى مظاهرات سياتل ودافوس وروما وجنيف وبورتو اليجرا فى البرازيل ، نتيجة لشروط السوق وشروط سدنة العولمة من صندوق النقد والبنـــك الدولى ومنظمة التجارة العالمية . هذا فضلاً عن شروط الـــسوق الغاشمـــة ، ومحاولـــة فضائيات العولمة للتهوين من ثقافة تلك الشعوب، وتسويغ وتسويق ثقافة الاستهلاك ، وتسليع مختلف مظاهر الحياة ، وازدراء خصوصياتها .

ولقد أطلقت بعض الأدبيات الأمريكية على الدول الـــتى لا تـــدور فى الفلـــك الأمريكى تسمية الشعوب المارقة أو الشعوب الصعلوكة Rouge Nations ونحـــن فى مصر وعالمها العربى نواجه أقسى وأعتى مظاهر الطغيان والعنت من سياسات الولايات المتحدة التى تحاول إرهابنا من أجل القضاء على الإرهاب العالمي. ولا أدل على ذلـــك من مساندتها للإرهاب الصهيونى للشعب الفلسطينى ، أو للتهديد السافر بغزو العراق .

وفى التفكير حول ما ورد من منظور عام لهذا التقرير ، يتضح أن أهم مـــشاغله تتركز فى أن مناهجنا التعليمية تقدم صوراً سلبية عن الولايات المتحدة وعـــن العلاقـــة بينها وبين إسرائيل ، وأن تلك المناهج تمثل (البذرة الأولى للأفعال الإرهابيـــة العربيـــة والإسلامية) والمطلوب هو تصحيح تلك الصورة عن طريق تغيير تلك المنـــاهج الـــتى **(تحض على كراهية اليهود)** . وهنا نواجه هذا الاتهام بما نضعه من تحد لواضعى التقرير فى مطالبتهم أن يجدوا فى مناهجنا ما يشير بطريقة صـــريحة أو متـــضمنة إلى كراهيـــة اليهود، وإنما الكراهية المتوقعة تشير إلى إسرائيل والصهيونية .

وأساس هذا التحدى هو عدم إطلاع (لجنة ١٩) على الوثائق الرسميـــة لـــسياسة التعليم فى مصر .. ففى التقرير الرسمى الذى أصدرته وزارة التربية والتعليم عام ١٩٩٢ بعنوان (مشروع مبارك والتعلم ، نظرة إلى المستقبل) نجد أن من بين أول وأهم أهداف

التعلم الابتدائى التى أقرها المؤتمر القومى لتطوير التعليم الابتدائى برئاسة السيدة الفاضلة حرم رئيس الجمهورية ، ما نصه : (ترسيخ الإيمان والاعتزاز لدى التلميذ بدينه وقيمه السماوية والاجتماعية ، **واحترام عقائد الآخرين ومقدساتهم وشعائرهم**) .

كما يؤكد فى الحديث عن أهداف التربية الدينية ما نصه :

(لابد أن ترسخ القيم الدينية والأخلاقية فى أطفالنا ، ولابد أن يكون تدريس الدين دافعاً للتمسك بالقيم العليا .. وأن يكون جوهر الدين الحقيقى هو التسامح والتكامل والتراحم ، **وحب الآخرين** إلى غير ذلك من القيم الدينية التى **تؤكد سماحة الدين الإسلامى**) .

وفى المرحلة الإعدادية ، يكرر تقرير الوزارة (مشروع مبارك القومى - إنجازات التعلم فى ثلاث سنوات) عام ١٩٩٤ ، الهدف نفسه من التربية الدينية ، ويضيف إلى عبارة احترام عقائد الآخرين العبارات التالية: (**احترام عقائد الآخرين ، بعيداً عن التعصب والتطرف** ، وحب الآخرين والحرص على أن **السلام هو الجوهر الحقيقى الذى نهتم بتعليمه لأبنائنا**) .

وبعد هذه النصوص القاطعة التى استقرت منذ سبع سنوات وما بعدها قبل أحداث ١١ سبتمبر ١٩٩٩ ، أتساءل أين كراهية اليهود أو أى شعب أو أى ديانة سماوية أو غير سماوية تضمنتها أهداف مناهجنا التعليمية ، بل إن العكس هو الصحيح؛ إذ إن مختلف توجهات تلك النصوص وغيرها تدل ، وبكل وضوح على احترام عقائد الآخرين ، بعيداً عن التطرف والتعصب. ومرة أخرى يجدر التنويه بأن تلك الفقرات المستمدة من الوثائق الرسمية قد تم تحديدها قبل أحداث ١١ سبتمبر ، وقبل ما يوصى به تقرير لجنة ١٩ الذى لم يطلع محرره على تلك الوثائق ، مما يقطع بأن دعواهم تنطلق دلالاتها من تفكير مسبق متحيز .

والثابت والمتواتر والأكيد أنه لا يمكن لتعليمنا الإسلامى أن يؤدى إلى كراهية اليهود ، وهم الذين اعتنقوا أول ديانة سماوية يؤمن بها المسلمون .

والعقيدة الإسلامية لا تكتمل – كما ورد فى القرآن المجيد إلا إذا أمن المسلم بما سبق من الديانتين السماويتين اليهودية والنصرانية ، بل وما سبقتهما من ديانـــات الأنبياء عليهم السلام جميعاً .

ومن آيات القرآن البينات (قل آمنا بالله وما أُنزل علينا ، وما أُنزل على إبـــراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من قبلهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون) .

ذلكم جانب أساسى من العقيدة الإسلامية التى يتكامل فيها الإيمان بالرســالات السماوية الثلاث والأنبياء جميعاً. وما أوسع المفارقة بين هذه العقيدة السمحة الـــشاملة والعقيدة الصهيونية العنصرية لشعب الله المختار وعداواتها المطلقة للعرب والمـــسلمين . ولنقرأ ما قاله إسحق شامير ولنتأمل دلالته الصريحة .

(فلنلتفت إلى معتقداتنا نحن ، حيث لا الأخلاق ولا التقاليد اليهوديـــة تنبـــذ الإرهاب بوصفه وسيلة قتالية فى مجرى الصراع .. لذا فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب . وفى التوراة "محقوهم عن أخرهم ، أبيدوا حرثهم ونسلهم. إن إرهابنا يلعب دوراً كبيراً فى معركتنا ، إنه صوت عـــال بحيث يسمعه العالم بأسره) . هل فى الحكم على أن هذه المقولات تمثل عنصرية مُنكرة لكل القيم الإنسانية ، وأن الحكم عليها بذلك حكم موضوعى منطقى .

هذه هى عقيدة أحد رؤساء وزارة الدولة الصهيونية يعترف بأن ما يقوم به مـــن اضطهاد وتعذيب وقتل للشعب الفلسطينى هو (إرهاب) مبرر. ولعلنا نـــدرك البـــون الشائع كماً وكيفً بين (إرهاب شامير) فى تلك الأيام ، وما يقترفه (شـــارون وآلتـــه العسكرية) بدباباتها وصواريخها ومروحياتها من حرب تدور رحاها منـــذ عـــامين فى محاولات شرسة حقودة لإبادة الشعب الفلسطينى بحرثه ونسله وبيوته ومقدساته ، وقتل آلاف وجرح عشرات الآلاف من السكان المدنيين العزل .

ومع هذا تأتى الاستجابة الأمريكية لكل ذلك التنكيل والخراب بمقولة أن ما تقوم به إسرائيل إنما هو دفاع عن النفس ، فى مواجهة ما يجرى على الساحة الفلسطينية من بعض العمليات الاستشهادية ، التى لم تنل إلا عدداً محدوداً من العسكريين والمدنيين ، حين لا ترى بعض فصائل المقاومة إلا سبيل لديها إلا سلاح الفداء بالنفس. ونتساءل :

لماذا تسمى عمليات الفلسطينيين بأنها إرهاب تستثيره روح الجهاد الإسلامى ، ولماذا لا يعتبر (الإرهاب الأفظع والأشمل والأقبح) من قبل إسرائيل (جهاداً) ينطلق من العقيدة الصهيونية لشعب الله المختار ، كما أشار إليها شامير وغيره من قادة إسرائيل ، وأقاويل حاخاماتهم وأحزابهم المتطرفة عديدة فى هذا الصدد ، تصل فى غلوها إلى ضرورة تهجير (ترانسفير) الشعب الفلسطينى بكامله من دياره .

وهل من المعقول أو الممكن إطلاقاً بعد كل ما جرى ويجرى من صراع دموى ألا تكره الشعوب العربية والإسلامية إسرائيل ، ومن يساندها فيما اغتصبته من أرضنا ودنسته من مقدساتنا ، وفيما تلطخ به تاريخها من الجرائم الفاشية فى حق شعوبنا . والقائمة طويلة طويلة ، وبشعة بشعة ، تطالعنا أخبارها الدموية صبيحة كل يوم .

الوصايا بتطوير المناهج التعليمية

قأشرنا فيما سبق إلى ما عرضه (الأسبوع) تلخيصاً لما ورد فى التقرير الأمريكى حول (خطة واشنطون لتغيير المناهج التعليمية فى مصر والعالم العربي) والذى انتهى به المطاف إلى موافقة الرئيس جورج دبليو بوش ، وقرر تأجيل إبلاغه للدول العربية حتى ينتهى من غزو العراق ، حين تغدو الظروف أكثر ملاءمة لإرغام الدول العربية على الالتزام به وتنفيذ مقرراته. وأشرنا كذلك فيما سبق إلى أن من أهم الدوافع إلى وراء ذلك التقرير هو تصحيح علاقاتنا مع الولايات المتحدة وإسرائيل من خلال تطوير مناهجنا التعليمية التى تمثل - حسب مزاعم التقرير - مصدراً هاماً من مصادر التأثيرات النفسية المولدة لكراهية هاتين الدولتين ، بل وللحضارة الغربية برمتها ، وما ترتب على ذلك من تشكيل الحركات الإرهابية جيلاً بعد جيل .

وفى مواجهة هذا الإدعاء الفاسد ، عرضنا مقتطفات من أهداف التعليم العام فى مصر ، كما قررتها الوثائق والمؤتمرات الرسمية لوزارة التربية والتعليم ، فضلاً عن المعالجة العلمية والموضوعية فى المناهج الجامعية لما يتصل بظروف علاقتنا مع هاتين الدولتين . وتدمغ كل المقتطفات المشار إليها من الوثائق الرسمية المحررة منذ عام ١٩٩٢ أى قبل أحداث ١١ سبتمبر ١٩٩٩ الادعاء بكراهية اليهود على أساس دينى واستبعاد تهمة معاداة السامية، التى يزج بها فى قضيتنا الرئيسية عند الحديث عن تحرير أرض فلسطين ، واستنكار ما يحاك من مؤامرة أمريكية لغزو العراق .

وسوف نعالج هنا التوجهات الرئيسية الأخرى التى يريد التقرير أن يغيرها فى مناهجنا ، وهو يزعم أن من حق الولايات المتحدة أن ترفض أو تبقى من مضامين تلك المناهج ما تراه متوافقاً (فى إطار مكافحة الإرهاب الدولى ؛ لذلك يجب **رفض أى احتجاجات** من قبل البعض على هذه السياسة الأمريكية الجديدة **بإدعاء أن ذلك يمثل تدخلاً فى مسائل السيادة الوطنية** لهذه الدول) ، وبهذا التحذير يختتم تقرير (عمدة القرية الكونية) وسدنتها داعياً إلى التسليم والإذعان التام بكل ما ورد من وصاياه الحكيمة !!!

وأول تلك المزاعم الادعاء بأن (**مصر تعد المورد الرئيسى للأفكار الإرهابية** .. وتشكيل الخلايا الإرهابية ، وأنه من خلال مصر تتوزع هذه الخلايا لتنتشر فى البلاد العربية) .. لقد نسى التقرير أو تناسى أن مصر قد اكتوت بنار الإرهاب ، وقاومتهم حكومة وشعباً ، وأن من بين هذه الفئة الضالة من آوته الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية كلاجئين سياسيين . ولقد دعا رئيس جمهوريتنا مراراً وتكراراً إلى عقد مؤتمر قمة دولى للنظر فى وسائل التصدى لهذه الظاهرة الخطيرة .

ونسى التقرير أو تناسى أن **الغرب والولايات المتحدة بالذات كانت من بين المصادر الرئيسية ، التى سعت إلى تكوين التشكيلات الإرهابية وأمدتها بالمال والسلاح لمواجهة الخطر الشيوعى فى أفغانستان وفى غيرها من الأقطار** ، حتى

استفحل أمرها فى طالبان . وما أن انهار الاتحاد السوفيتى حتى بدأت توجه سلاحها نحو سادتها الأول .. أما فى مصر .. فقد اعتبرت آراء تلك التشكيلات الإرهابية منافية لصحيح الدين ، وأنها فئات منحرفة تعـــبر عن أفكار وقوى ظلامية . ووظفت الدولة – وما تزال – مؤسساتها التعليمية والثقافية والإعلامية ، كما عقدت الندوات والمؤتمرات لمواجهة الفكر بالفكر ، تصحيحاً لموقف الإسلام من أفكار الظلام والإرهاب ، ومن الدعوة لإقامة دولة دينية .

وأقتطف هنا ما ورد فى تقرير وزارة التربية والتعليم (مشروع مبـــارك القـــومي) الذى صدر عام ١٩٩٤ مرة أخرى (أى قبل أحداث ١١ ســـبتمبر ١٩٩٩) ؛ حيـــث يشير إلى دور المدرسة فى مواجهة ظاهرة التطرف ، مؤكداً على أنه (**إذا كان مجتمعنـــا يواجه الآن ظاهرة التطرف ، فإن للمدرسة دوراً رئيسياً فى تلك المواجهة** ، إننا نؤمن بأن الطريق الحقيقى للمواجهة يبدأ من المدرسة والمنـــزل ؛ **أى إنه فى الأساس عمـــل تربوى**) . وفى هذا التوجه اقترحت الوزارة كما جاء فى الوثيقة ، عدداً من الإجراءات، من أهمها (**زيادة الجرعات القيمية والدينية التى تحث على التفكير والنقد ، وتعلـــيم أساليب الحوار ، وقبول وجهات النظر الأخرى**) ويقينى أنه لو اطلع واضعو التقريـــر على هذا الهدف وإجراءاته ، لألغوا كل ما جاء فيه من دعاوى وتوصيات .

وفى ضوء أفكارهم المســـبقة ، قامت اللجنة بتحـــديد تصورات معينة لمختلـــف المناهج، بادئة بتدريس مادة الدين. وفى هذا الصدد يرى واضعو التقريـــر أنـــه (**لـــن نستطيع أن نغير من محتوى القرآن ، ولكن علينا التدخل لإفراغه مـــن مـــضمونه**) وكيف يتحقق لهم ذلك – قاتلهم الله – ؟ يتم ذلك بضرورة التركيز على الفـــروع المتعلقة بالطقوس الدينية والعبادات ، والعمل على أن يظل دور الدين محصوراً فى العلاقة بين الفرد وربه ، دون أن يتطرق إلى أكثر من ذلك) ، وهذا يعـــنى اقتطـــاع جانـــب المعاملات ومكارم الأخلاق ، والذى يعتبر جزءاً لا ينفصل بل ويكمل جانب العقيـــدة ذاتها .

وأتساءل هل تنفصل العقائد عن قيم المعاملات والفضائل فى تدريس الدين بتلك المدارس ذات الصبغة الدينية بمختلف طوائفها المسيحية أو اليهودية فى الولايات المتحدة؟ وليدلنا أصحاب التقرير ماذا تصنع كل البرامج الدينية فى قنواتها المتخصصة الأمريكيـــة حين تقدم رسائلها الدينية؟ لقد ذهب بعضها أخيراً إلى إدخـــال الـــدين فى الـــسياسة الأمريكية من خلال التهجم على الإسلام ومعتنقيه ، مما لا يحدث فى وسائل إعلامنـــا بالنسبة للديانات الأخرى .

ويتابع التقرير تحديد ما ينبغى تدريسه فى المرحلة الابتدائية **لتغيير (التربية الدينية)** إلى مسمى **(الثقافة الدينية)** حيث تقدم صورة إيجابية عن الفضائل الأساسية للديانات السماوية الثلاث. وفى المرحلة الإعدادية يتم التركيز على (حوار وتفـــاهم حـــضارات العالم ، وعلى أنها صاحبة رؤية مشتركة فى بناء الإنسان).

وقبل توصية التقرير بحوالى أربعة عشر قرناً ، نشير إلى أن القرآن المجيـــد الـــذى يريدون أن يفرغوه من مضمونه ، قد دعا الناس كافة فى آيته الجامعة ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَـــاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّـــهِ أَتْقَـــاكُمْ** ﴾ أليست هذه رؤية مشتركة **لمساواة البشر وبناء الإنسان** وحوار الحضارات . وهـــى تلغى ما فاجأنا التقرير به من أن فى تربيتنا الدينية (مفهوم سلم لأوليات الحـــضارات ؛ أى لا يجب أن تدعى حضارة تفوقها على حضارة أخرى) ، وهذا مفهوم مـــستقر فى قيمنا الدينية ، فى حين يمارسه أولئك الذين يرموننا بهذا الاتهام .

وتوصية التقرير أشد ما تكون غرابة وتحيزاً حين تشير إلى مضمون التربية الدينيـــة فى نهاية المرحلة الثانوية ؛ إذ تدعو إلى (أن تكون هناك نظرة فاحصة ، وإعادة تقيـــيم عقلانية **لبعض الأخطاء الدينية الشائعة حول عدوانية الدين الإسلامى** والعلاقات مع الشعوب والدول الأخرى) وصدق الحق تبارك وتعالى (لا إكراه فى الدين) ويا ويلنا من قلب الأمور لنصبح نحن عدوانيين لا معتدى علينا. وفى جميع الأحوال يبـــدو أن روح التقرير فى التربية الدينية تنعكس فى عبارته (**يجب أن تكون اللغة الدينية مبنيـــة علـــى العقل والمنطق لأعلى النقل والتبعية للكتاب المقدس (القرآن) دون تفكير**) وحـــين

أتساءل عن أى توجه وعقلانية لهذا التفكير تأتى الإجابة بأن (هناك عديدًا من المرجعيات الدينية يمكن أن تقوم بتفسير الدين تفسيراً مختلفاً يساعد على تنفيذ المطالب الأمريكية) يا للهول ، ومعذرة!!

ومن جانبنا نؤكد لواضعى التقرير - وقبل قراءة توصيتكم - أن هناك فعلاً اجتهادات متعددة فى تفسير آيات القرآن الكريم من علماء إجلاء ، فى ضوء المعانى والدلالات اللغوية ، وسياق نزول الآيات ، وفى ربط الدين بالحياة من أجل كرامة الإنسان وعمارة الأرض ، لكنها اجتهادات لا علاقة لها بتنفيذ المطالب الأمريكية. ويتساءل المرء فى كل توصية خاصة بتعليم الدين من غلبة تصورات طالبان وتفسيراتهم على عقول أصحاب التقرير ، فى حين أن الآيات القرآنية التى تحث على إعمال العقل فى الفهم والتدبير تعد بالعشرات ، والآية الكريمة موجهة لهم (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

وهكذا يحاول التقرير زعزعة كيان جوهرى أصيل فى ثقافتنا ، وفيما تعلمه لأبنائنا وبناتنا. ومن هنا ينتقل إلى **تعليم اللغة العربية** ، وهى الكيان الثانى فى خصوصيتنا الثقافية ، وهنا يلاحظ التقرير أن (مناهج اللغة العربية خاصة فيما يتعلق بموضوعات المطالعة والنصوص الأدبية **تحض على كراهية الآخرين** ، **وتصور العربى بصورة المقاتل الشرس**) وأتساءل هل قامت اللجنة بدراسة منهجية لتحليل مضمون كتب المطالعة والنصوص للوصول إلى هذا الحكم ، أما أنها رؤيتها المسبقة المنحازة هى التى أصدرت الحكم ؟

ولا مناص هنا من أن نتحدى اللجنة فى إثبات دعواها فى أى كتاب من الكتب المقررة خلال مراحل التعليم المختلفة ؛ فليس فى كتب القراءة أو النصوص ما يحض على كراهية الغرب ، وإن كانت هناك موضوعات تشخص عدوان إسرائيل. وتقرر اللجنة هنا (**سنوافق على بعض موضوعات المطالعة عن حب البلد والوطن**) ولكنها **مشروطة بأن تكون (بالشكل الجمالى الذى يرسم الطبيعة العامة لبلادهم)** .

ويشى هذا الرأى كما يضمر بعدم الاهتمام بترسيخ الولاء والانتماء الدفاع عـــن الوطن وقيمه ومصالحه .. وهل تفعلون ذلك فى مناهجكم؟! وتتابع مواصفاتها لكتـــب القراءة **مؤكدة** (بأننا **سوف نحذف** كل ما يثار من موضوعات هدفها بث الكراهية تجاه الغرب ، وكل ما هو أمريكى وأوربى **أو حتى ما يخص دول الجوار**) والمقصود بـــدول الجوار إسرائيل بالطبع ، ومرة أخرى يخفى التقرير الجرئ المقتحم الإفصاح عما يريد .

ويتطلب الرد على هذا الإدعاء إيراد بعض تعليمات الوزارة فيمـــا يخـــص أهـــم الموضوعات والمفاهيم الجديدة التى ينبغى أن تتضمنها كتب القراءة والمواد الاجتماعية ، ومنها حسبما ورد فى كثير من تقاريرها (القضايا السكانية والبيئية ، وحقائق الحيـــاة البيولوجية ، والمساواة بين الجنسين ، والوحدة الوطنية ، والتوعية الـــسياحية ، وقـــيم التسامح والحوار ، واحترام الآخر ، والسلام ، ومقاومة التطرف والإرهاب ، والاهتمام بمبادئ حقوق الإنسان وحقوق الطفل) .. هذا إلى جانب بعض الموضوعات القوميـــة والتاريخية ، وهل تريد اللجنة أن تحذف شيئاً من هـــذا ؟ لن نسمح لها حتى لو افترضنا أنها تريد .

أما عن **موضوعات القراءة والنصوص التى ترسم صورة العربى كمقاتل شرس**، فليس من المعقول أن نشوه كتبنا بهذه الصورة لأهلنا وشعبنا. لكن قلب الحقائق مـــن سمات هذا التقرير ، حيث إن **بعض الكتب الغربية التى أطلعت عليهـــا هـــى الـــتى ترتكب هذه الخطيئة** ، حين نرسم صورة للعربى والمسلم راكباً حصانه وشاهراً سيفه ، وتحتها عبارة An Arab brandishing his sword. هذا فضلاً عن مختلف أســـاليب التعبير التى تشير إلى العربى المتخلف ، أو إلى النمطية التقليديـــة فى التعريـــف بحياتـــه كراكب جمل ، أو أنه ليس لديه من مقومات الحضارة غير الأهرام وأبى الهول ، وكأن تاريخنا دون تاريخهم ما يزال يراوح مكانه دون تقدم .

ومن اللغة العربية تنتقل التوصيات المقررة إلى **مادة التاريخ**. وهو البعد الثالث فى مكونات خصوصيتنا. وهنا تظهر الفجاجة فى التقرير حين يـــدعو إلى تغـــيير منـــاهج التاريخ حيث إن (**أفضل ما يتم التركيز عليه هو تاريخ الثورات العلمية فى العالم**) ،

وما يرتبط بذلك من تطور تاريخى فى العادات والتقاليد ، مؤكداً **أن يتم ذلك (دون التطرق إلى ما سمى بمراحل الاستعمار أو تقديم القتلة على أنهم أبطال وشهداء** ، بل يجب ترسيخ إيجابيات الحضارة الغربية ودورها الرائد لدى الشعوب العربية والإسلامية) وفى موقف أخر يشير إلى (السعى إلى **أبعاد المسلمين عن أى دور حضارى أو سياسى أو نضالى**) من أجل (تربية التلاميذ تربية سليمة ، بعيدة عن لغة العداء والرؤى التاريخية غير الصحيحة لطبيعية العلاقات بين الغرب والعرب المسلمين).

ويكاد المرء من هول الفضيحة العلمية الواردة فى تلك التوصيات أن يتوقف عن التعليق ، ومع ذلك نتساءل عما لا ينبغى التساؤل عنه: كيف يمكن أن يحذف من تاريخ شعوبنا أو أى شعوب أخرى فترة تزيد عن مائة عام من حياتها تحت قبضة الاستعمار الأوربى ، وما نجم عنها من استغلال لمواردها وعمالها، وما تزال تراكماتها التاريخية تمثل بعداً من أبعاد تشوهات جهودنا الإنمائية. وهل يمكن أن يلغى من تاريخ الولايات المتحدة حروبها مع الإنجليز، أو الحرب الأهلية ، أو تاريخ الرقيق أو اضطهاد الهنود الحمر ، مهما تغيرت إلى مسمياتهم الحالية .

ولماذا تلزموننا بعدم الاعتراف والتقدير لتضحيات شهدائنا فى معارك التحرير ، وأن نذكر أطفالنا بما قدموه فداء للوطن. ومن ذا الذى لا يرى على تماثيلكم ونصب شهدائكم عشرات ومئات الأسماء ممن ضحوا بأرواحهم فى الحرب الأهلية أو فى الحربين العالميتين. أما مقولة إبعاد العرب والمسلمين عن إسهامهم فى مسيرة التطور الحضارى والسياسى والنضالى ، فقد وقف العرب مع الغرب فى حروبه ضد النازية والفاشية نضالاً وتضحيات ، بجزاء من الوعود المخادعة. كذلك أسهموا فى بناء الحضارة الإنسانية علماً وثقافة فى العصور المظلمة من تاريخ أوربا ، مما تذكره كافة المراجع الأجنبية فى تاريخ الحضارات عن تلك الفترة. أضف إلى ذلك ما لدى الولايات المتحدة بالذات حالياً من آلاف العلماء العرب والمسلمين ، الذين يقدمون أرفع إسهاماتهم العلمية والتكنولوجية والطبية ، تعليماً وبحثاً وإدارة .

أما عن الدور الرائد للحضارة الغربية .. فإننا نسلم بل ونسعى إلى التـــزود بمـــا أنجزته من المعارف العلمية والتكنولوجية فى مختلف أنشطة الحياة. ونحن اليوم نؤكـــد فى مناهجنا التعليمية أهمية علوم المستقبل بالتركيز على الرياضـــيات والعلـــوم واللغـــات الأجنبية ، واكتساب المهارات والمعارف العالمية الجديدة ، والتعرف على أبرز الإنجازات العلمية العالمية. وقد أخذت علوم الحاسوب والبرمجيات طريقها إلى مدارسنا، بل جرى تعميمها على كل المدارس الثانوية فى مصر لتصبح مادة دراسية مقررة .

أما بعد :

فإنى لا أملك ختاماً لتلك الخواطر السريعة ، التى أثارها التقرير الأمريكـــى إلا أن أسجل بكل موضوعية ، ما يدل عليه من تحيز وتعسف واستفزاز فى دعاويه ، محرمـــاً علينا ما يحلله لمجتمعاته الغربية ، (رمانا بدائه وانسل) ، وساعياً إلى زعزعـــة مقوماتنـــا وخصوصياتنا الدينية والاجتماعية والثقافية ليصبح العالم العربى مجتمعات بـــلا روح . ومن ثم صيحتى (إلاَّ التعليم يا سيد بوش) .

(٣) إصلاح التعليم من أجل أمركة العقول !!!

أخر مبادرات اليوم :

جاءت لتكحلها فأعمتها ، تلكم هى (المذكرة التنفيذية التفصيلية لمبادرة كولن باول) والملخصة فى تقرير رئيس التحرير لصحيفة (الأسبوع بتاريخ ٢٠٠٢/١٢/٢٣) وفى الوقت الذى نقول فيه بملء أفواهنا وعزائم أقلامنا (إلا التعليم يا أمريكا !!) تؤكد (المذكرة التفصيلية) المشار إليها ، كما هو الشأن فيما سبقها من تقارير(... بل التدخل فى التعليم أولاً ...) وتستند مزاعم هذه (المذكرة) كغيرها إلى أن أوضاع النظم العربية هى مركز تربية الإرهاب ، حيث إن ٨٢% من الإرهابيين ينتمون إلى الدول العربية ، ومنهم نسبة كبيرة من المتعلمين تعليماً عالياً. ومن ثم غدا التعليم هو البيئة الرئيسية لتوليد الإرهاب ؛ حيث اكتسبوا من خلال تلك البيئة قيمهم ومهاراتهم التى دفعت بهم إلى ارتكاب تلك الجرائم الدولية. وقد لعبت المناهج والمؤسسات التعليمية دوراً كبيراً فى زيادة مخاطر التيارات والجماعات الإرهابية .

وتأسيساً على ذلك الزعم .. فإن برنامج التدخل فى التعليم يحتل أولوية متقدمة حتى يمكن (إنشاء أجيال عربية جديدة تؤمن بالحوار الديمقراطى كوسيلة أساسية لتسوية أى خلاف سواء فى نظم حكمها أو مع خارج هذه النظم). وتقرر (المذكرة التفصيلية) أن الضرورة تقتضى (وضع برامج تنفيذية محددة بأهداف معينة ، مع جداول مخططة للتنفيذ) وأن هذه الإصلاحات التعليمية هى جزء لا يتجزأ من برامج المشاركة التى ترسمها مبادرة كولن باول لتدعيم الإصلاحات الديمقراطية والاقتصادية فى المجتمعات

العربية ، حيث إن إصلاح التعليم هو (الدعامة الأولى لوأد الإرهاب فى الشرق الأوسط).

وتصنف (المذكرة) النظم العربية إلى أربع مجموعات ، يتم التدخل فيها لتطبيق البرامج التعليمية والديمقراطية ، فى ضوء علاقاتها الراهنة مع الولايات المتحدة ، وأنه قد يكون من الضرورى فرض الإصلاحات المرسومة بالقوة العسكرية فى بعض منها . ولما كان البرنامج التربوى هو الذى يعنينا فى المقام الأول .. فلن نتعرض التفاصيل التنفيذية فى المجالات الأخرى للمبادرة. وبصرف النظر عن تصنيف النظم العربية وأساليب المشاركة والتدخل الأمريكى لتنفيذ مختلف الإصلاحات التربوية ، فإن (هناك عدداً من المسائل الأساسية التى لابد من الوفاء بها من قبل هذه النظم بلا استثناء) .

المسائل الأساسية المفروضة :

لقد جرى تحديد هذه اللزوميات القطعية ، والتى أذكرها مقتطفاً ومختصراً بتصرف لما ورد فى صحيفة (الأسبوع) كما يلى :

١ - إنشاء مدارس أمريكية فى مختلف البلدان العربية لكل مراحل التعليم العام الابتدائى والإعدادى والثانوى، وأن تكون هذه المدارس مؤهلة للالتحاق بالجامعات الأمريكية .

٢ - الاعتماد فى المراحل الأولى على الخبراء والأكاديميين الأمريكيين فى إدارة هذه المدارس ، مع تطعيمها بأكبر عدد من خبراء التعليم فى الدول العربية .

٣ - تنظيم عدد كبير من الدورات التدريبية والتأهيلية المشتركة للمدرسين والمدرسات والموظفين المعنيين بالعملية التعليمية فى هذه المدارس. وتعقد هذه الدورات سواء فى داخل البلاد العربية أو فى الأراضى الأمريكية ، كما تتضمن بعض البرامج المتخصصة فى العلوم السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية ، بما يؤكد الصورة الأمريكية المثلى فى الديمقراطية ونظم الحكم.

٤ - يجب ألا تكون تكاليف الالتحاق بهذه المدارس عالية ؛ لتشجيع أكبر عدد ممكن من التلاميذ العرب للانخراط فى هذا التعلم الذى يماثل المناهج التعليمية الأمريكية.

٥ – سوف لا تقتصر المناهج على المقررات الدراسية ، وإنما سيتم تخصيص جزء كبير منها لتشجيع المشاركة السياسية والديمقراطية وأسلوب اتخاذ القرارات السليمة ، فضلاً عن الاهتمام بالعملية الانتخابية من حيث إدارتها أو المشاركة فيها .

٦ – سيتم فى داخل المدرسة إنشاء نواد يطلق عليها (نوادى الحرية الأمريكية). ومن خلالها ستجرى ممارسة التطبيقات الديمقراطية وأسلوب الحياة الأمريكية الأمثل ، بعيداً عن العنف والإرهاب ، كما تحرص على نشر ثقافات تتعلق بقبول الآخرين. وتعمل هذه الأندية على تشجيع البنات فى مجال اتخاذ القرار، بعيداً عن التعصب الدينى أو المفاهيم الخاطئة المنتشرة فى دول المنطقة .

٧ – وكظهير لمنظومة التعليم الأمريكى المنشود ، يتم دعم إنشاء المدارس من خلال سلسلة من المصالح والمشروعات والمؤسسات الاقتصادية الأمريكية، تؤسس فى داخل الدول العربية. وهذه المشروعات ستؤدى إلى توسع الاقتصاد الأمريكى ، فضلاً عن أنها ستضمن فرص عمل لخريجى المدارس والجامعات الأمريكية ، وبرواتب مغرية مما يؤدى إلى زيادة الإقبال عليها .

٨ – إن مشروع إنشاء المدارس الأمريكية يجب أن يلقى دعماً مالياً كبيراً من قبل الإدارة الأمريكية ، وينبغى أن تكون له موازنات مالية مستقلة .

٩ – تخصص (المذكرة) فقرات حول تشجيع تعليم البنات ، وتشجيع المرأة بصورة عامة على ممارسة دور مباشر فى الحياة السياسية والاقتصادية. وهناك خطة جاهزة لتدريب المرأة العربية فى أوائل هذا العام ، يسبقها تحضير لبعض الفتيات العربيات لقيادة حركة تطوير المرأة ؛ من أجل أن يكون لها حضور قوى فى البرلمانات العربية ، وأن تتشكل داخل هذه البرلمانات لجان لها الحق فى مخاطبة الجهات الدولية ، وبخاصة الأمريكية ، فى حال استمرار العوائق التى تحد من دورها . ومن الضرورى توفير موارد مالية منفصلة لأداء هذه اللجان لدورها بفاعلية .

١٠ – من المتعين أن يتم البدء فى طرح هذا المشروع التعليمى بدءاً من عام ٢٠٠٣، وتستمر عمليات التنفيذ والإنشاء حتى عام ٢٠٠٥ ، حين تبدأ الدراسة الفعلية

فى هذا العام ، وهذا يقتضى الإسراع فى إعداد الدورات التدريبية والبرامج المشتركة مع حكومات المنطقة للإعداد والتأهيل .

١١ – دعم وتقوية اللامركزية السياسية وبرامج الحكم المحلى ، وبخاصة فى مجالات التعليم ؛ مما يساعد على الوفاء بالمتطلب الديمقراطى .

١٢ – تنظيم برامج بالاشتراك مع الجامعات والمؤسسات فى هذه الدول ، سواء الحكومية أو غير الحكومية ، حول الوعى السياسى والمشاركة فى الحملات الانتخابية .

١٣ – وكظهير ثقافى عام تشير (المذكرة) إلى أهمية اعتماد برنامج منفصل للترجمة إلى العربية ، من خلال مئات الكتب الأمريكية التى تعالج مجالات السياسة والاقتصاد والتربية وشئون البرلمانات والحكم المحلى ؛ لتكون مراجع توزع على المؤسسات الدستورية والمؤسسات الاقتصادية الخاصة والجامعات .

ويتوازى مع هذا النوع من برامج الترجمة ، برنامج آخر يهدف إلى ترجمة كتب أمريكية مبسطة حول الأنماط المثلى للحياة الأمريكية فى جوانبها المختلفة مع قصص رمزية ترسخ أهدافاً وقيماً معينة. ويتم توزيع كتب هذا البرنامج على طلبة المدارس فى المراحل التعليمية المختلفة ، وإدخالها فى صلب المناهج التعليمية للمدارس الحكومية فى هذه الدول. ويشرف على حركة الترجمة وزارة الخارجية الأمريكية التى تعين لذلك خبراء أمريكيين على صلة مباشرة بكبار المسئولين المعنيين بتنفيذ البرنامج .

ومبلغ القول :

١ – أننا نجد أنفسنا أمام نمط أمريكى جديد ضمن أنماط التعليم المختلفة السائدة فى الأقطار العربية ، وله برنامج تفصيلى متكامل محكم لخطوات التنفيذ ، إنشاءً ومضموناً وتوقيتاً. وتشرف عليه الهيئات الأمريكية بما فيها وزارة الخارجية وتموله الحكومة الأمريكية تمويلاً مباشراً. وتحقيق هذا البرنامج التفصيلى يضاف إلى ما ورد فى تقرير لجنة ١٩ التى سوف تعمل على إدخال التغييرات فى المناهج الدراسية الحكومية

والخاصة فيما يتعلق بمناهج التربية الدينية واللغة العربية ، والتاريخ ، مما أشرنا إليه فى مقالنا السابق فى (الأسبوع) .

ويُهيَّأ لتنفيذ هذا البرنامج الأمريكى وتكامله بدورات الإعداد والتدريب والتأهيل للمشتغلين بالعملية التعليمية فى مدارس البين والبنات ، وتوفير مجالات للأنشطة الثقافية والتربية السياسية ، وتدريبات خاصة لبعض الفتيات العربيات للريادة والقيادة فى تحديث وتطوير أوضاع المرأة العربية .

٢ – ومن خلال ذلك .. كله فإن البرنامج التعليمى يتجه حسب تعبير (المذكرة) إلى (ربط أبناء الدول العربية بأنماط الثقافات الأمريكية) كما أن من تميز من خريجى هذه المدارس والجامعات الأمريكية (لابد أن يدخلوا دائرة الضوء والمناصب السياسية فى بلادهم) ومن خلال إنتاج الصفوة من هذا التعليم الأمريكى ترى (المذكرة) فى ذلك ضماناً فى (ارتباطهم العاطفى وترتيب أفكارهم مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وتأييد السياسات الأمريكية وتلافى خطر الإرهاب وخطورته) .

وبكل وضوح وصراحة يسعى البرنامج إلى تنشئة أجيال عربية جديدة متأمركة ، عقلاً ووجداناً وســـلوكاً ، وقيماً ، واستلاباً ، واغتصاباً لكل ما هو وطنى أو قومى أو إسلامى ، فى مقومات مواطنيتهم العربية وخصوصياتهم الحضارية .

٣ – تتم محاصرة نظم التربية العربية الحكومية والخاصة من خلال هذه البرامج الأمريكية لتنميط العقل العربى فى اتجاه المصالح الأمريكية ، واصطناع (الصورة الأمريكية المثلى فى الديمقراطية ونظام الحكم) وبذلك تتهيأ كل الإمكانات للسيطرة على مواردنا وعقولنا ، بعدما أغرقت أسواقنا بالكوكلة شراباً والمكرنة طعاماً ، والجكسنة غناء ، والكجولة لباساً ، والنولنة أعياداً ، إلى غير ذلك مما أخذ يشيع من مظاهر الحياة المادية والاجتماعية الأمريكية فى ثقافتنا .

٤ – أن برنامج التطبيع الأمريكى للعقل العربى يتصل بصورة مباشرة – وأن تخفى تحت عبارات عامة من قبيل فهم الغير ودول الجوار – بقضية الصلح مع إسرائيل،

بصرف النظر عن شروط هذا الصلح ، وعن قلب معادلة الضحية والمعتدى. والحاصل هو الرغبة فى برمجة العقل العربى وتربية النخبة السياسية المنشودة المؤازرة للمصالح الأمريكية ، وفتح قنوات الاتصال بين هيئات المجتمع المدنى وإنشاء مكتب الأقليات التى تستطيع الاتصال والشكوى عن طريق الهيئات الدولية وبخاصة الأمريكية فيها. وسوف تؤدى كل هذه الإجراءات إلى توفير الظروف الحاكمة لتسوية الصراع العربى الإسرائيلى ، ووأد نزعات العنف والإرهاب فى منطقة الشرق الأوسط ، حسب مزاعم التقارير الأمريكية .

٥ – تُطرح المبادرة بما فيها البرنامج التعليمى تحت شعار (المشاركة) ، لكنها فى الوقت ذاته واجبة التنفيذ ، (ولابد من الوفاء بها من الأنظمة العربية ، بلا استثناء) وهو مبدأ ورد قبلاً فى تقرير لجنة ١٩. وفى حالة مصر – والتى تحاول المذكرة أن تتعامل معها بقليل من الاستحياء ، فى مقابل التعامل من خلال القهر ، بل والتدخل العسكرى فى حالة دول عربية أخرى – يُطلب منها أن من تلقاء نفسها القيام بتنفيذ الإصلاحات السياسية والتنموية والتعليمية المفروضة. بيد أن هذا النهج غير مطلق ، فعليها أن تقدم ورقة عمل حول أساليب وتوقيت التنفيذ ، بدءاً من عام ٢٠٠٣ وأن تنتهى المرحلة الأولى عام ٢٠٠٦، مع الالتزام بخطة المبادرة. ثم أليس غريباً أن يوضع برنامج الترجمة للإشراف المباشر لوزارة الخارجية ؟

٦ – ومع ذلك الاستحياء الأمريكى فى حالة مصر من حيث التنفيذ للبرنامج الأمريكى لتقوم به بنفسها ، إلا أن الجانب الأمريكى يظل (مترقباً للنتائج) وفى بداية التحليل وليس فى نهايته ، دلالة لا تخفى – حتى على غير اللبيب – للهيمنة على وسائط الثقافة العربية وقيمها ، وقولبتها فى ضوء (الأنماط المثلى للحياة الأمريكية) كما تزعم (المذكرة) . فأين المشاركة فى إنشاء المدارس الأمريكية وتغيير المناهج العربية وإعداد برامج التدريب ما دامت جميعها فى القبضة الأمريكية ، توجها وتمويلاً وتنفيذاً وإشرافاً، خلال تنفيذ تلك الإصلاحات. ثم بعد تقييمها سوف يكون هناك تشاور (وتدخل أمريكى فى بعض البرامج المطروحة) وفى حالة عدم قبولها .. فإنه لابد أن تقدم الهيئات

المصرية البديل المناسب من تلقاء نفسها ، ثم إن هذا البديل (سيخضع بدوره للتقييم والمشاورات مع الجانب الأمريكى ، فى ضوء تحقيق الأغراض والأهداف التى يسعى البرنامج الأصلى المطروح إلى تحقيقها) ؛ أى الهيمنة على نظام التعليم هيمنة كاملة بطريقة ديبلوماسية .

٧ – وحين يقولون إن المبادرة تقوم على أساس المشاركة نتساءل أى مشاركة بين طرف يُملى ويحدد ويشترط دون استثناء ، وطرف تخضع كل مبادراته أو بدائل توجهاته إلى المراجعة والتقييم ، فى ضوء التوجهات الأمريكية نحو إرساء الديمقراطية ، والقضاء على الإرهاب. وتخضع لهذا الأسلوب المراوغ فى المشاركة كافة الإصلاحات السياسية والديمقراطية والتنمـــوية بما فيها البرنامج التعليمي . ومع ذلك فإن هـــذا الأسلوب بالنسبة لمصر قد لا يتبع مع دول أخرى ، إذ يُلجأ لتنفيذ برامجه إلى الضغوط السياسية والاقتصـــادية ، أو إلى العمل العسكرى فى حالة كل من العـــراق وسوريا وليبيا ، وإيران .

٨ – ومما يستدعى الالتفات ما أغفلته (المذكرة) فى خطة برامجها للإصلاحات التعليمية قضية التعليم العلمى والتكنولوجى ، وتوظيف وسائطه الإلكترونية المختلفة سواء فى داخل المدارس والجامعات أو فى الإفادة منها فى التعليم عن بعد. وربما كان مجال المشاركة فى هذه المجالات أجدى فى تطوير حقيقى للتعليم ونقلته النوعية ، من إنشاء نظام للمدارس الأمريكية فى الأقطار العربية. وهذه مجالات يسعى التعليم العربى إلى الإفادة منها ومن الخبرات الأمريكية ، ويحتل هذا الاهتمام موقعاً متقدماً فى مصر ؛ حيث تبذل جهود لتوفير آليات تعليم المستقبل فى مدارسها وجامعاتها .

٩ – قد يقال إن فى المبادرة ومذكرتها التفصيلية اتجاهات مشابهة تقوم بها مصر وغيرها من الدول العربية فى سبيل تطوير نظمها التعليمية ، منها على سبيل المثال : تحسين نوعية التعليم ليركز على مقومات التفكير العلمى والحوار والنقاش ، والاهتمام بالأنشطة التعليمية، وتطوير المناهج ، والتوسع فى المشاركة فى صنع القرار التربوى ، وفى السعى إلى فاعلية لامركزية الإدارة .

قد تلتقى الجهود المصرية مع بعض تلك الأشكال الواردة فى التقارير الأمريكية ، بيد أن الفارق رهيب بين أن نكون نحن أصحاب القرار فى وضع الأهداف ورسم السياسات ، وأن نقوم نحن بالعمل على تنفيذه ورصد نتائجه وتقويمه ، وبين أن تُملى علينا شروط ومشروعات من الخارج ، لها أهدافها ومراميها الظاهرة والمستترة ، فالتعليم قطاع سيادى ، وجبهة من جبهات الأمن القومى ، كما يؤكد السيد رئيس الجمهورية والقيادات فى التعليم ما قبل الجامعى وفى التعليم الجامعى والعالى .

ومن الواضح كما أسلفنا أن البرنامج الأمريكى كما يعلن بوضوح أن هدفه تكوين ناشئة عربية ، تُستلب هويتها وانتماءاتها الوطنية والقومية كى تؤمن بنموذج الحياة الأمريكى ، وتدعم مصالحه وأساليب هيمنته ، فهل نحن لذلك مستسلمون ؟!

ثم إن الخطورة ليست فى مجرد الالتقاء مع البرنامج الأمريكى فى شعاراته الديمقراطية واهتماماته بالمرأة ، وإنما تكمن فى تجسيد برامج ومؤسسات تعليمية عديدة، تمثل نظاماً تعليميًّا متكاملاً مستقلاً ومغرياً ، مما لم يحدث حتى فى فترات الاحتلال البريطانى فى مصر . ومنظومتنا التعليمية الحكومية والخاصة والأزهرية مع ما بينها من تباينات .. إلا أنها تظل ملتزمة بمناهجنا فى إطار ثقافتنا بمكوناتها الوطنية والقومية والدينية. والجامعات الأجنبية كالجامعة الأمريكية ، وما يستجد من جامعات بريطانية وفرنسية وألمانية يتم إنشاؤها وتنظيمها بالاتفاق مع الحكومة المصرية. أما المدارس الأمريكية المنتظرة فسوف تكون خارج أى تدخل مصرى ، والعكس صحيح كما تقول التقارير ، فإن من حق السلطات الأمريكية إلزام مناهج تعليمنا بالتغيير من أجل تفريغها من كل ما يرسخ مقومات الوطنية والهوية الذاتية، نظراً لأن أوضاعها الحالية ، كما تزعم التقارير ، تمثل البيئة الأساسية لتوليد كراهية الغرب ، وبروز تيارات التطرف والإرهاب .

أما بعـد ؟

لقد كان المقصد من متابعة الوثائق التى وردت فى التقرير الأسبوعى الذى يلخصها رئيس التحرير المقتدر الأستاذ مصطفى بكرى ، هو دق ناقوس الإنذار مجلجلاً

لينذر بالمخاطر ، التى تحيق بتكوين الإنسان العربى ومحاولات أمركته ، وهو أعلى ما تمتلكه مصر وأمتها العربية من ثروة متجددة للتقدم والنماء. ولن نتمكن من تحقيق بناء الإنسان العربى بطاقاته وقدراته الصانعة للثروة والنماء إلا إذا قمنا نحن بزراعته فى أرضنا وتعهدناه بالنمو والازدهار والإثمار .

علينا أن نمارس من خلال الجهد القومى وتقويمه بكل ما يتعرض له من مد وجزر، استخلاص الخبرات التى تكفل مزيداً من النمو لطاقاتنا البشرية وقدراتها التنافسية. ولن ينجم عن فرض نماذج أمريكية أو أجنبية إلا إحداث شروخ وتناقضات متزايدة فى صرح ثقافتنا التى نتابع تجديدها وإكسابها الحيوية ، بفعلنا الدءوب وعقلنا المنفتح. وفى هذا الإطار لن نتردد فى الاستعانة والاختيار الملائم من خبرات وآليات الثقافات الأخرى ، بكل انفتاح رشيد ، ودون عقد أو تعصب .

ومن خلال هذه الرؤية فى الندية والاعتماد المتكافئ ، نلتقى مع كل ما يمكن أن يقدمه لنا الغرب والولايات المتحدة الأمريكية ، من عون وخبرة دون شروط ، ودون تعسف ، ودون تهديد بالتدخل السافر أو المراوغ ، ودون إنذار بالعقاب. وفى هذا الصـــدد يظل مبدؤنا فى التعليم ، كما فى غيره من مجالات التنمية الأخرى (ليكن كل ما هو عالمى فى خدمة كل ما هو عربى) .

وأخيراً .. فإن ناقوس الخطر الداهم الذى ندقه ، يتطلب عملاً جماعيًّا للوعى بتداعياته واقتضاءاته حاضراً ومستقبلاً. ومن ثم فإنى أبادر إلى الدعوة العاجلة إلى مؤتمر تربوى أهلى عام تناقش فيه كل التقارير الأمريكية ذات الصلة بالتعليم، والتى سوف تعرض على الكونجرس لمناقشتها واعتمادها .

وقد يسبق هذا المؤتمر العام اختيار لجنة مصغرة للإعداد له، وتحديد محاور مداولاته وقراراته ، وأحسب أن الروابط والجمعيات التربوية المتعددة تقع عليها المسئولية الكبرى فى التحضير والدعوة للمؤتمر العام .

ومن بين أهم هذه المنظمات المهنية نقابة المعلمين ورابطة التربية الحديثة ، ومختلف الجمعيات التربوية والنفسية ، ويشارك فى هذا المؤتمر ممثلون لجميع كليات التربية ، والأحزاب ، والمجتمع المدنى ، وبعض أهل الفكر والرأى .

ويهدف المؤتمر إلى إصدار إعلان فى مواجهة مخاطر البرامج الأمريكية ، وتحديد الأولويات والموارد الوطنية لاستكمال الرؤية والمسيرة فى تطوير مختلف مراحل تعليم المصرى ؛ من أجل بناء مصر المستقبل ، بالجهد المصرى ، وبالعزة الوطنية .

وأخيراً فى اهتداء بقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ .

(٤) مبادرة عربى جسور
نحو إطلاق الحرية الأكاديمية فى الجامعات الأمريكية

ما دمنا نعيش بهذه القرية الكونية فى هذه اللحظات التاريخية ، فمن حـــق الأســـاتذة العرب ممن ينتمون إلى ما يعرف بالشرق الأوسط أن يطرحوا مبادرات لإصلاح أحـــوال الدول المتقدمة ، وبخاصة تلك المهيمنة على مصائر هذه القرية ؛ بغية أن تتكامل وتتـــسق مكوناتها فى نظام عالمى جديد يتأسس على مبادئ العدالة والحرية والسلام . ومن أولويات المبـــادرات التى تطرحها الولايات المتحدة الأمريكية ، يرى صاحبنا العـــــربى أن قـــضايا التربية والتعليم تحتل مكانًا بارزًا فى صـــدارة تلك المبادرات ، باعتبارها منـــاط تكـــوين العقول والوجدانات ، التى تولد وتنمى ذهنية التسامح والعيش مع المختلف واحترام الرأى والرأى الآخر ، وتزدهر فيها القيم الإنسانية نحو ما هو أفضل وأكمل وأجمل .

وكثيرًا ما استندت المبادرات الأمريكية والمتحالفين معها إلى دراســـات وتقـــارير عربية فى تأسيس دعواها لإصلاح أحوالنا ، والاقتداء باصطناع أوضاعها الديمقراطيـــة النقية المبرأة من كل ما يشوب حقوق الإنسان فى حرية الرأى والتعبير فى كل مجـــالات الفكر والثقافة ومؤسساتها . ومن ثم يقول صاحبنا إن من حقنا أن نتجاسر من قبيـــل الندية حين نعتمد على مقال بعنوان (الأكاديميا الأمريكية) لأستاذة فى جامعة هارفارد متخصصة فى دراسات الشرق الأوســـط كقطاع ، مما تعنى به تلك الجامعـــة فى مجال ما يعرف بدراسات المناطق فى العالم (Area Studies) وكاتبة ذلك المقال هى الأستاذة (سارا سوى Sara Soy) ، من كبار العلماء والباحثين فى (مركز جامعة هارفـــارد لدراسات الشرق الأوسط) ، وهو مقال ضاف موثق بالوقائع التى تبين لنا ما يعانيـــه الأساتذة والباحثون من عنت وتضييق ومراقبة فى حريتهم الأكاديمية إلى درجة الابتزاز باتهامهم بعدم الولاء لأمريكا ، ومعاداتهم للسامية ، امتدادًا كاسحًا إلى كونهم طـــابورًا خامسًا أثناء تناولهم للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوســـط ، وتبريـــرهم حركـــات

الإرهاب المنطلقة من تلك المنطقة ، وسوف أجهد نفسى لترجمته بكل أمانة لمفرداته وجمله ومعانيه ، وذلك فيما يلى :

جرى حديثًا حيث يوجد مقر عملى فى جامعة هارفارد ، أن قام فارس من الطلاب اليهود باسم مستعار غير يهودى بوضع عبارات ضد السامية فى موقع على الإنترنت يخص موقع (المبادرة من أجل السلام والعدالة) . وهى جماعة مناهضة للجماعة المؤيدة للقضية الفلسطينية فى حرم الجامعة . وقد تبين فيما بعد أن هذا الطالب هو سكرتير جماعة (طلاب هارفارد من أجل إسرائيل) ، والتى أدانتها من قبل جماعة المبادرة السابقة بكونها متساهلة إلى حد كبير مع اللاسامية .

وقد اختفى هذا الطالب فجأة ليقوم سرًّا من تلقاء نفسه برصد الاتجاهات نحو العداء للسامية فى حرم الجامعة ، وظل يقدم على موقع الإنترنت عباراته المتحيزة ، والتى أشار فى إحداها إلى إسرائيل باسم (دولة الاشكنازى) .

إن أحداثًا من هذا النوع قد أصبحت شائعة فى أرجاء الجامعات الأمريكية ، متسمة بالتصميم الراسخ من أجل القيام برصد الأقوال ، وكتابة التقارير ، والدفاع الحار ، انتهاءً بالعقاب الرادع لكل من يرى « اليمين السياسى » أنه غير متفق مع توجيهاته .

وهذه الحملة موجهة إلى مجالات دراسات المناطق بصورة عامة ، لكنها تستهدف فى هجومها الشرس المعنيين بدراسات الشرق الأوسط والتى تعتبر أفكارهم معادية لإسرائيل ، أو للسامية أو ضد مصالح أمريكا . وأخذت العلاقة بين أولئك المتعصبين من المدافعين عن إسرائيل والأساتذة تصطبغ بمسميات مختلفة ، يسودها التوتر خلال مدة غير قصيرة . ومنذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بدأ « اليمين » يدين الأكاديميين من أساتذة برامج الشرق الأوسط على وجه الخصوص بتروات التطرف وبالخيانة الفكرية .

وفى تقرير نشر فى نوفمبر ٢٠٠١ بعنوان (الدفاع عن الحضارة : كيف تخفق جامعاتنا فى خدمة المصالح الأمريكية ؟ وماذا يمكن اتخاذه فى هذا الشأن ؟) . وقد

صدر هذا التقرير عن (مجلس الأمناء والخريجين) ، وهو مؤسسة لا تنشد الربح من بين أعضائها لين تشينى ، زوجة نائب رئيس الجمهورية ، وعضو مجلس الشيوخ (جوزيف ليبرمان) – ولعله فى اعتقادى ممن رشحوا أنفسهم فى الانتخابات الأولية لرئاسة الجمهورية القادمة عن الحزب الديمقراطى ، وانسحب مبكرًا .

ومن بين ما ورد فى هذا التقرير الاتهام القاطع للأكاديميين بأنهم غير وطنيين ، وضد مصالح أمريكا ، ومن قبيل « الطابور الخامس » باعتبارهم يزودون الإرهابيين الدوليين بالدعم الفكرى . وقد أورد هذا التقرير حوالى مائة من طروحات هؤلاء الأكاديميين مفعمة بذلك المنحى ، والتى يدعون فيها إلى فحص عميق ناقد للأسباب التى أدت إلى أحداث ١١ سبتمبر ، وإلى الدور الذى من المحتمل أن تكون قد لعبته السياسة .

ونعود إلى إدانة التوجهات فى دراسات الشرق الأوسط ، التى ظهرت فى تقرير آخر كتبه (مارتن كرامر) بعنوان (أبراج عاجية فوق الرمال) ، والذى أصدره (معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى) وهو من الداعمين لإسرائيل . وفى هذا التقرير يدعى (كرامر) الذى يقوم بتدريس مادة التاريخ والسياسات العربية فى جامعة تل أبيب ؛ بأن دراسات الشرق الأوسط فى أمريكا تطغى عليها بل وتصيبها حقًّا بالشلل تلك المشاعر التى تنضح بها مؤيدة للعرب ومناهضة لمصالح أمريكا . ويعتقد (كرامر) أن المؤسسات الأكاديمية قد أخفقت ، وربما تكون قد أخفت سرًّا ، فى تقديرها لحجم ومدى التهديد الإسلامى ، الذى أدى إلى الهجوم على مركز التجارة العالمى . ويتابع فى تقريره دعواه بأن دراسات الشرق الأوسط فى أمريكا قد ركزت بدرجة كبيرة على الموضوعات التاريخية والثقافية ، وهى موضوعات لا فائدة منها فى مواجهة ضرورات الأمن القومى الأمريكى ، وربما تكون قد أضرت بها . كما يدعو إلى أن يتجه التناول الجديد لدراسات الشرق الأوسط محورًا رئيسيًا حول (فكرة الدور المفيد الذى تقوم به الولايات المتحدة فى أرجاء العالم) .

ولم يهدأ تواتر تلك التقارير والمقولات ، فقد شهد سبتمبر عام ٢٠٠٢ ظهور موقع (مراقبة الحرم الجامعى Campus Watch) على شبكة الإنترنت ، والذى

يهدف فى المقام الأول إلى رصد ما يبدو من أساتذة أقسام دراسات الشرق الأوسط فى مختلف أرجاء الولايات المتحدة من أى انحياز ضد أمريكا أو معاد لإسرائيل . وجاءت فكرة (مراقبة الحرم الجامعى) ابتكارًا خبيثًا من (دانيل بابس Daniel Pipes) وهـــو زميل للأستاذ (كرامر) ، ويشغل منصب المدير لمستودع تفكير متخصص فى تـــرويج المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط . ومن مآثره أن قال فى مقابلة تلفزيونية (إننى لا أريد أن تُدرَّس كتابات ناعوم تشومسكى (وهو كما يعلم القـــارئ العـــربى أســـتاذ اللغويات فى معهد إم أى تى ، والمفكر الناقد لسياسات أمريكا الخارجية والداخلية) : أريدها أن تدرس فى الجامعات بالقدر الذى لا أريد أن تظهر فيها كتابات ســـتالين أو كتابات هتلر . إن هذه كلهـــا تحمل أفكارًا متـــرفة لا أعتقد فى أن يكون لها مـــكان فى أى جامعة) والواقع أن دور (مراقبة الحرم الجامعى) لم يقتصر على رصد ما يجرى فى الجامعات من مظاهر التحريض . ومن بين تلك الأفكار ما يتعلق بسياسة الولايات المتحدة ، والإسلام ، وسياسة إسرائيل ، وحقوق الفلسطينيين ، وغيرها ممـــا يعتـــبره (دانيال بابس) انحيازات غير مقبولة ، بل تعدى هذا الدور إلى تشجيع الطلاب ؛ لكى يكونوا « مخبرين » عن انحيازات أساتذتهم ذات الطبيعة المهينة للولايات المتحدة .

ومما يستحق الالتفات أن الرئيس بوش قد اختار (بابس) حديثًا ليكون (مديرًا لمعهد الولايات المتحدة للسلام) وهو مؤسسة فيدرالية غير حزبية شكلها الكونجرس ؛ من أجـــل السعى إلى الحيلولة دون وقوع النزعات الدولية وإدارتها وحسمها بالطرق السلمية .

ومع معرفتنا بأن المناخ السياسى هنا فى الولايات المتحدة قد أنشأ إلى حد كـــبير رابطة بين الجناح اليمينى من الداعمين لإسرائيل ، والأعضاء فى مؤســـسة المحـــافظين الجدد، فلم يعد من المستغرب أن يزج قريبًا بدراسات المناطق (ومن بينها دراســـات الشرق الأوسط) فى إطار قانونى . ففى ٢١ أكتوبر عام ٢٠٠٣ ناقش مجلس النـــواب مشروع (قانون رقم هـــ. ر ٣٠٧٧ فى شأن التعليم العالى) ويـــسعى المـــشروع إلى تجديد قانون صادر فى هذا الشأن منذ عام ١٩٥٩ ، يجيز تقديم تمويل فيدرالى لـــدعم

الدراسات الدولية وتعليم اللغات الأجنبية ، برمز تى آى ، ومع ما قدمه هنا القانون من تحسين فى تلك المجالات الأكاديمية ، إلا أن ما حدث له أخيرًا من تعديل فى مواده يثير المخاوف لما يمكن أن تمس به مضامين المناهج وطرق تدريس التاريخ فى المؤسسات العلمية التى تقبل المعونة الفيدرالية .

ومما له دلالة فى هذا الصدد أن الشخصية المتحمسة وراء مشروع ذلك التعديل الخطير (هـ. ر. ٣٠٧٧) هو الأستاذ (ستانلى كيرتز) زميل باحث فى (مؤسسة هوفر) (وشريك لكل من كرامر وبابس) . وفى شهادته أمام المجلس بتاريخ ١٩ يونيه ٢٠٠٣ قام (كيرتز) بصب الاتهامات على الباحثين والعلماء القائمين بدراسات الشرق الأوسط وغيرها من دراسات المناطق ، مدعيًا بأنهم يسيئون استخدام المعونة الفيدرالية (من خلال نقدهم المتطرف أحادى الرؤية لسياسة أمريكا الخارجية) . ويعتقد أن الرأى السائد لديهم بأن نظرية ما بعد مرحلة الاستعمال تفترض (أنه من غير الأخلاقى لأى باحث أن يوظّف معرفته باللغات الأجنبية وثقافاتها فى خدمة القوة والهيمنة الأمريكية) . ويشير فى هذا الصدد إلى إدوارد سعيد الذى يعتبر كتاباته فى هذا الصدد من أشدها ضررًا وخبثًا .

ولقد تم قبول شهادة (كيرتز) هذه دون أية مناقشة من أعضاء الكونجرس ، كذلك جرى اعتماد توصياته « لإصلاح الضرر » من مجلس النواب .

ومصدر الخطورة الكامنة والمزعجة فى هذه التوصيات ما دعت إليه من إنشاء مجلس استشارى أعلى للتعليم العالى الدولى ؛ لضمان أن البرامج التى تمولها الحكومة تعكس متعدد الرؤى ومختلف الأفكار حول مناطق العالم واللغات الأجنبية وثقافاتها ، وغيرها من الشئون الدولية . وسوف يتألف ذلك المجلس الاستشارى للتعليم العالى الدولى من سبعة أعضاء فى أعلى المستويات الوظيفية ، وسوف يكون من المهمات الرئيسية التى يتولاها اقتراح التوصيات حول (تحسين البرامج العلمية المعانة ، وجعلها أكثر ارتباطًا بالاحتياجات القومية وبأمن الوطن) ، وسوف لا تخضع توصيات المجلس لموافقة أى مسئول فى الإدارة الفيدرالية أو وزارة التربية . وإذا كان مشروع القانون يحول دون المساس أو التوجيه أو الرقابة لمضمون المناهج والبرامج التعليمية فى مؤسسات

التعليم العالى ، إلا أنه يشير فى الوقت ذاته إلى أنه يمكن القيام (بدراسة ورصد وتقييم عينة من النشاطات التى تخضع للقانون) ، مما يبطل ما تدل عليه الفقرة الأولى . وهذا يعنى تدخلاً فيدراليًّا غير مسبوق فى مضمون وأداء ما تقوم بـــه الجامعـــات فى مجـــال دراسات المناطق .

إن فى مشروع هذا القانون وما قد ينتهى إليه من إجراءات مخاطر جمة على التعليم العالى فى أمريكا وعلى الحرية الأكاديمية . وإذا وافق الكونجرس على قانون (هـــــ. ر. ٣٠٧٧) ، فسوف يتمخض عنه إنشاء ذلك المجلس الاستشارى الذى ســـوف يتـــولى عملية الرصد عن كثب لما تقوم به الجامعات فى مواءمتها لسياسة الحكومـــة ، حيـــث يفترض القانون بذلك أن (أى عيب هو فى الخبراء وليس فى الحكومة) . وقد تستطيع الحكومة أن تطعم الجامعات ، وأن تطرح فى مجراها الرئيسى بعض الأصوات المتعاطفة معها سياسيًّا لكى تقوم بتشكيل الحدود الضابطة للبحث الأكاديمى . ومن المتوقـــع أن تلقى أية مقاومة مؤسسية فى هذا الشأن عقابها عن طريق سحب المعونة منها، مما سوف يضر ضررًا بالغًا بمراكز دراسات الشرق الأوسط بصفة خاصة .

كذلك يتضمن مشروع القانون (هـــ. ر. ٣٠٧٧) مواد أخرى لا تقل عما سبق فى شناعتها بالنسبة للجامعات ، ومنها أن على المؤسسات المُعانة الخاضعة لذلك القانون بعد إقراره ، أن تزود موظفى الحكومة المعنيين بمن يترشحون من خريجيها للوظـــائف الحكومية بكل المعلومات عنهم . كذلك سوف يكلف القانون وزير التربية والمجلـــس الاستشارى (بدراسة – أى بالتجسس – على مجتمعات الطلاب الـــذى يتحـــدثون بلغات أجنبية ، وبخاصة تلك المجتمعات التى تمثل لغاتها مواطن حساسة لأمن الولايـــات المتحدة القومى) .

وأخيرًا إلى ماذا ينتهى كل هذا ؟ إنه محاولة لإسكات كل صوت ينتقد سياســـة الولايات المتحدة ، ويضع حدًّا لما قد ينشأ من اختلافات بين الحكومة وأجندة المحافظين الجدد .. إنها ليست سياسة للتنوع ، إنها للتطابق والامتثال . انتهى المقال .

أما بعـــد :

إن مبادرة صاحبنا الأستاذ العربى لتصحيح مسار الحرية فى الولايـــات المتحـــدة وبخاصة منذ أحداث ١١ سبتمبر ، ضرورة تحتمها ما تولـــده القـــوانين والإجـــراءات البوليسية الخانقة لحريات التعليم والبحث من تشويه بالغ لما تدعونا إليه هـــذه القـــوة الخارقة من إصلاحات ديمقراطية وتسامح وحرية فى الرأى والتعبير . ومن الواضـــح أن معظم تلك الإجراءات والضغوط ، كما تشير الأستاذة (سوى) من جامعة هارفـــارد موجهة إلى مضامين دراسات الشرق الأوسط ، وأن كثيرًا من الـــداعين إلى ضـــبطها ومراقبتها من جماعات اللوبى الصهيونى ذات النفوذ العاتى على الكونجرس الأمريكى ، فى تشابك أيديهم وعقولهم وتحيزاتهم فى كل موقع ومؤسسة وسياسة مع اليمين مـــن المحافظين الجدد ، فى مواجهة حقوق العرب لتحرير أراضيهم والسيطرة على مواردهم .

وإذا كان الزعم الأمريكى فى مبادراته ينسب لمؤسساتنا التعليمية وثقافتنا وإسلامنا أنها مواطن لتوليد العنف الذى يقود إلى الإرهاب ، فإن وقائع المقال الـــسابق الـــذى حررته أستاذة هارفارد ، يقوم شاهدًا إلى جانب آلاف الشواهد الأخـــرى علـــى أن السياسة الأمريكية فى توحدها مع الدعاوى الإسرائيلية وسياساتها وبربريتها هو مصدر حقيقى ، غير مزعوم أو متوهم ، لما يسود منطقتنا من كراهية للحكومـــة الأمريكيـــة وسياستها . كما يؤكد أنه هو السبب الرئيسى الأعظم ، الذى يحـــول دون اســـتقرار المنطقة والقضاء على شيوع الإرهاب الدولى . ومبادرة هذا الأستاذ العربى التى اعتمـــد فيها على ذلك المقال مصادفة ، تدعو الإدارة الأمريكية الحالية بالـــذات إلى ضـــرورة حسم الصراع الفلسطينى الإسرائيلى فى إطار حل سلمى عادل ، تقوم فيه الولايـــات المتحدة – أكبر قوة فى عالم اليوم – بالدور المنصف غير المتحيز وبالعين المبصرة لـــرد الحقوق الفلسطينية إلى أصحابها ، واحترام سيادة دول المنطقة جميعًا .

وتلك هى الرسالة العظمى .

(٥) كتاب (رحلة إلى القدس) وقصة نشره(*)

تأليف جريس هاسيل

يسيطر اليهود الأمريكيون على المواقع الهامة فى كل مجالات حكومتنا حيث تتخذ القرارات المتعلقة بالشرق الأوسط . ومع هذا السياق نتساءل هل من أمل على الإطلاق فى تغيير سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء القضية الفلسطينية ؟ فالرئيس الأمريكى كلينتون ومعظم أعضاء الكونجرس يدعمون إسرائيل ، وهم يعرفون لماذا يتم هذا الدعم .. والسبب وراء ذلك هو أن يهود أمريكا المتعاطفين مع إسرائيل يقدمون التبرعات السخية لصناديقهم الانتخابية .

ومع ذلك فإن الإجابة عن تحقيق سياسة متوازنة فى الشرق الأوسط قد تكمن فى موقع آخر ، فى موقع أولئك الذين يساندون إسرائيل لكنهم لا يعرفون لماذا ؟ وهذه المجموعة تمثل غالبية الشعب الأمريكى .. إنهم ذوو نوايا حسنة ، مسيحيون يتسمون بالإنصاف فى أحكامهم ، وغالباً ما تربطهم بإسرائيل – والصهيونية – مشاعر سلفية تعود فى بعض الحالات إلى مرحلة الطفولة ، وأنا واحدة من هؤلاء . لقد نشأت فى بيئة استمعت فيها إلى حكايات عن إسرائيل فى صورة غامضة ، رمزية ، روحانية ، وكان هذا بالطبع قبل أن تظهر وحدة سياسية بذلك الاسم بنفسه على خرائطنا . وانتظمت فى (مدارس الأحد) ولاحظت معلماً يرسم على الخريطة ظلالاً ليرينا موقع الأرض المقدسة. وبهذا تشربت حكايات (شعب الله المختار الطيب) الذى حارب (أعداءه غير الطيبين وغير المختارين) .

(*) تحكى قصة نشر هذا الكتاب مؤلفته الأمريكية Grace Hasell .

ومع أوائل العشرينيات من عمرى ، بدأت أسفارى فى العالم كى أتكسب رزقى ككاتبة . بيد أنى تعاملت مع موضوع الشرق الأوسط فى فترة متأخرة من ممارسة تلك المهنة ، ولقد كنت مع الأسف قليلة المعرفة بالمنطقة ، وكان كل ما أعرفه هو ما تبقى فى ذهنى من (مدرسة الأحد) . وكغيرى من كثير من مسيحيى أمريكا ، اعتبرت على نحو ما أن هناك دولة حديثة أنشئت عام ١٩٤٨ لتكون وطناً قومياً لليهود الذين اضطهدهم النازيون على شاكلة إسرائيل الروحانية الرمزية التى سمعت عنها عندما كنت طفلاً . وعندما ذهبت فى البداية إلى القدس عام ١٩٧٩ ، كانت خطتى تتركز على الكتابة عن أديان التوحيد الثلاثة العظيمة ، تاركة المسائل السياسية جانباً . بيد أنى سرعان ما سمعت فلسطينياً سخر منى، وهو يدخن نارجيلته فى داخل المدينة القديمة بحوائطها ، فيقول (نحن نأكل سياسة صباحاً وظهراً وليلاً) .

وكما تعلمت كان محور السياسة حول الأرض ، والطرفان اللذان يتنازعان ملكيتها : السكان الأصليون الفلسطينيون الذين عاشوا هناك منذ ألفى عام ثم اليهود اللذين بدءوا يتوافدون إليها بأعداد كبيرة بعد الحرب العالمية الثانية . ومن خلال معيشتى وسط اليهود والفلسطينيين من المسيحيين والمسلمين ، رأيت وسمعت وشممت وخبرت ماذا قامت به تكتيكات الدولة البوليسية اليهودية ضد الفلسطينيين .

لقد انتهى بى البحث إلى تأليف كتاب بعنوان (رحلة إلى القدس JOURNEY to JERUSALEM) . والحاصل أن رحلتى لم تكن قد ألقت أضواءً على إسرائيل ، لكنها أوصلتنى إلى فهم أكثر عمقاً وأكثر مدعاة للحزن على واقع دولتى . وأكرر أن فهمى كان أكثر مدعاة للحزن ؛ لأننى بدأت أرى أن أمور السياسة فى الشرق الأوسط لا نضع نحن الشعب مقرراتها ، بل تضعها تلك الفئة التى تدعم إسرائيل . ولما كنت كغيرى من معظم الأمريكيين ، فقد اتجه نظرى إلى الاعتقاد بأن وسائل الإعلام فى الولايات المتحدة الأمريكية " حرة " فى نشرها للأخبار بصورة غير متحيزة .

لكن شعارها الحقيقى كان " هذا ينبغى ألا ينشر .. إنه ضد إسرائيل " ، وفى أواخر السبعينيات عندما ذهبت إلى القدس ، لم أكن على وعى بأن المحررين كانوا

يصنفون الأخبار اعتماداً على من فعل ماذا ؟ ومع من ؟ وفى زيارتى الأولى لإسرائيل (فلسطين) قابلت عشرات من الشباب الفلسطينى ، ومن كل مجموعة كان ربعهم يقصون على حكايات التعذيب التى يتعرضون لها ، يأتى رجال البوليس الإسرائيلى ليلاً ليجروهم من أَسِرَّة نومهم ويلقون غطاء كثيفاً على رؤوسهم ، ويأخذونهم للسجن فى غرفة منعزلة ، ويحاصرونهم بأصوات عالية لا تنقطع ، ويعلقونهم بحيث تكون رؤوسهم إلى أسفل ، وكثيرا ما شوَّهوا أعضاءهم الجنسية . مثل هذه الحكايات لم أقرأها فى وسائل الإعلام الأمريكية . أليست هذه أخباراً ؟ وكان من الواضح لدى – كما كنت أعتقد بسذاجة – أن سبب ذلك يعزى ببساطة إلى أن المحررين لم يعلموا بأن تلك الأمور تحدث فعلاً .

وأذكر أنه فى أثناء رحلة إلى (واشنجتون د .س) عرجت على فرانك مانكيوتز FRANK MANKIEWICZ رئيس محطة الإذاعة العامة (ويتا WETA) لأسلمه رسالة بيدى ، تحمل مقابلات أجريتها مع فلسطينيين تعرضوا لأشد أنواع التعذيب قسوة ، ورأيت أن أتركها لديه لاستعمالها ، لكن لم يصلنى أى جواب منه فى هذا الشأن ، رغم محاولاتى المتعددة للاتصال به هاتفيًّا . وأخيراً أحالونى إلى موظفة فى العلاقات العامة بالإذاعة ، واسمها الآنسة كوهين التى أنبأتنى بأن خطابى الذى سلمته بيدى قد فقد ، لذلك أعدت كتابته . ومع مرور الوقت أدركت الحقيقة التى لم أكن على معرفة بها . وفحواها أنه لو كانت تلك التسجيلات تحيط بنبأ تعليق اليهود وتعذيبهم فلسوف تعتبر (أخباراً) ، لكنها مقابلات مع عرب معذبين ، لذا فمصيرها إلى الضياع فى محطة الإذاعة (ويتا WETA) .

ولقد كانت قصة نشر كتابى (رحلة إلى القدس) خبرة معلمة من النوع نفسه ، والحكاية تبدأ من توقيع العقد لنشر الكتاب مع (بل جريفن BILL GRIFFIN) الذى كان قسيساً كاثوليكيًّا نيابة عن (شركة ماكميلان للنشر MACMILLAN PUBLISHING COMPANY) . وقد أكد لى بأن بعد الانتهاء منه سوف يتولى تحرير الكتاب بنفسه ، ولن يدعه لأحد غيره . وفى أثناء كتابة فصوله التى استدعت القيام بعدة جولات إلى إسرائيل والقدس ، كنت أحرص على أن ألتقى

عادة بالسيد جريفن ، وأطلعه على نماذج من تلك الفصول. لقد كان تعليقه على ما بها من مادة (هائل TERRIFIC).

وفى اليوم الذى اكتمل فيه الكتاب والذى كان محدداً لبدء نشره ، ذهبت لزيارة شركة مكميلان . وبينما كنت أستأذن للدخول عن طريق مكتب الاستقبال ، لمحت السيد جريفن عبر أحد الغرف ينظف مكتبه، وجاءت سكرتيرته (مارجى MARGIE) لتحيتى . ومع الدموع فى عينيها ، همست فى أذنى بأن أسعى للقاء بها فى المكان المخصص لحمام السيدات . وعندما التقينا بعيدين عن الأعين والأسماع أسرت لى (إن جريفن قد فصل من العمل) وأشارت لى بأن ذلك قد حدث (بسبب توقيعه عقداً لنشر كتاب يعبر عن تعاطف مع قضايا الفلسطينيين ، ولذا فإن جريفن ليس لديه وقت ليقابلك) .

وبعد أيام التقيت بالسيد (وليم كرى WILLIAM CARRY) أحد موظفى شركة مكميلان للنشر ، وأنبأنى بأنه (قد صدرت التعليمات لديه بأن يأخذ مخطوطة كتابك إلى السفارة الإسرائيلية ، وأن على المسئولين فيها أن يقرءوه لتفادى الأخطاء)، ولم تكن السفارة راضية عن المخطوطة وكانت استجابتها لى (هل صحيح أنكم ستقومون بنشر هذا الكتاب ؟!) .

وتساءلت (هل وجدوا بالكتاب أخطاء) فأجاب (لا، لا أخطاء بمعنى أخطاء، لكن هذا الكتاب ينبغى ألا ينشر .. إنه ضد إسرائيل) .

وقد أتاحت بعض الظروف لأن ينشر الكتاب ، رغم العوائق التى كانت تحول دون ذلك . وبعد أن تم نشر الكتاب عام ١٩٨٠ ، دعيت للحديث حول موضوعاته فى عدد من الكنائس الأمريكية . وأقرر أن المسيحيين بصورة عامة قد بلغت بهم معطياته إلى حد عدم التصديق ، والواقع أنه فى ذلك الوقت لم تكن هناك تغطية تذكر للأنباء الخاصة باستيلاء إسرائيل على الأراضى التى يملكها الفلسطينيون ، أو إلى هدم منازلهم ، أو إلى تعذيبهم واعتقالهم بطريقة عشوائية . وكنت كلما أشرت إلى تلك المظالم ، جاءت الاستجابة عادة بالتساؤل : (كيف حدث أننى لم أسمع بهذا من قبل؟) وقد يتعجب البعض قائلاً (كيف أننى لم أقرأ عن ذلك فى الصحيفة التى أقرؤها) .

ولهؤلاء كنت أروى لهم عن خبرتى ، التى تعلمتها حيث رأيت حشوداً من المراسلين الأمريكيين يقومون بتغطية أخبار دولة صغيرة كإسرائيل ، وفى الوقت ذاته أشرت إلى أننى لم أعثر على مثل هذا العدد من المراسلين فى العواصم العالمية مثل بكين (بيجنج) وموسكو ولندن وطوكيو وباريس .. ومازالت أتساءل لماذا تحظى دولة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن ٤ ملايين نسمة بأعداد أكبر من المحررين، لا تحظى به دولة مثل الصين وعدد سكانها بليون من البشر .

وقد ارتبط بهذا التساؤل ما توصلت إليه من معلومات تفيد بأن صحائف نيويورك تايمز ، وول ستريت ، واشنجتون بوست ، ومعظم وسائل الإعلام الأمريكية، يمتلكها أو يسيطر عليها يهود ممن يدعمون دولة إسرائيل . ولهذا السبب استنتجت أنها أرسلت كثيراً من الصحفيين لتغطية أخبار إسرائيل ، وكانوا يقومون بذلك عادة من وجهة النظر الإسرائيلية إلى حد كبير .

ولقد تضمنت خبرتى التعليمية التحقق من أنه يمكن افتقاد صديق إسرائيلى بسهولة إذا ما قمت بانتقاد الدولة الإسرائيلية . هذا فى الوقت الذى أستطيع فيه أن أنقد – دون عقوبة أو ملامة – دولاً مثل فرنسا وإنجلترا وروسيا وحتى الولايات المتحدة الأمريكية وأى جانب من جوانب الحياة فيها . لكن هـــذا لا ينسحب على الدولة اليهودية .. لقد خسرت أكثر من صديق من الأصدقاء اليهود بعد نشر كتابى (الرحلة إلى القدس) ، وكلها خســـارات محزنة ، بل إنها من أكثر خســـاراتى مدعاة للحزن .

والواقع أنه فى عام ١٩٦٠ و١٩٧٠، قبل ذهابى إلى الشرق الأوسط، كتبت عن محنة السود فى كتاب بعنوان (روح الأخت SOUL SISTER) وعن محنة اليهود الأمريكيين فى كتاب بعنوان (بسى ذات الشعر الأصفرBESSIE YELLOWHAIR)، كذلك كتبت عن المشكلات التى يعانى منها أولئك العمال الذين يعبرون من المكسيك إلى الولايات المتحدة ممن لا يحملون وثائق شرعية .

وقد لفتت هذه الكتب اهتمام السيدة آرثر هيز سلزبرجر ORTHER HAYS SULZBERGER التى تعتبر الأم بالنسبة لصحيفة نيويورك تايمز ، والتى كثيراً ما

كانت تدعونى إلى شقتها الفاخرة فى الشارع الخامس لتناول الغذاء أو العشاء مع أصدقائها . وفى أوقات عديدة كنت ضيفاً خلال عطلة عيد الأسبوع فى بيتها فى ضـــاحية جرينتش بولاية كونكتت .. لقد كانت تلك الســـيدة ليبرالية الفكر وكثيراً ما أثنت على جهودى فى التعبير عن ضحايا الاضطهاد ، إلى الحد الذى وصفتنى فى إحدى رسائلها بقولها (أنت أعظم النساء من بين من عرفت) . لكننى لم أكن أتصور أننى بعد هذا التقدير العالى سوف أهبط فى نظرها فجأة عندما اكتشفت -من وجهة نظرها - أننى أدافع عن الفريق غير الصحيح من المضطهدين (أى الفلسطينيين) .

وفى إحدى عطلات نهاية الأسبوع عندما كنت فى ضيافتها فى بيتها الفسيح ، أخذت تقرأ فى نسخة من كتاب (الرحلة إلى القدس) وبينما بدأت استعد للمغادرة سلمتنى تلك النسخة وفى عينيها نظرة حزينة غاضبة قائلة (يا عزيزتى ، هل نسيت الهولوكست محرقة اليهود؟) لقد كانت تشعر بأن ما حدث لليهود فى ألمانيا النازية خلال عقود عديدة مضت ، كفيل بأن يحول دون أى نقد للدولة اليهودية . ومن ثم فإنها تركز اهتمامها على هولوكست اليهود ، بينما تنكر وجود هولوكوست حديث يتعرض لـــه الفلسطينيون . والغريب أن السيدة سلزبرجر لم توجه الدعوة إلى فى بيتها آنذاك لمقابلة المشاهير من أصدقائها ، وإنما بناء على اقتراحها طلبت منى نيويورك تايمز أن أكتب لها مقالات للنشر فى الصحيفة . وقمت فعلاً بتحرير مقالاً فى عدة موضوعات من بينها قضايا السود والهنود فى أمريكا والعمال المهاجرين إليها بطريقة غير قانونية ؛ نظراً لأن سلزبرجر والموظفين اليهود فى الصحيفة معجبون بجهودى فى مساعدة الجماعات المضطهدة من شعوب العالم .. وهكذا تبدت ثنائية النظرة واضحة: إنها أقصى " الليبرالية " !!

إن يهود الولايات المتحدة الأمريكية يقفون إلى جانب مساعدة كل الفقراء والمضطهدين من الشعوب إلا فئة واحدة ، هم الفلسطينيون . ومن العجب أن يسعى هؤلاء اليهود الذين يشكلون الفكر الليبرالى إلى تحجيم شأن الفلسطينيين ، وإلى إخفاء قضاياهم أو إلى تصنيفهم جميعاً على أنهم " إرهابيون " .

أخيراً لقد شعرت مع شديد التألم، أن صداقتنا قد بلغت نهايتها (مع نيويورك تايمز وجماعتها) .

ومن الحقائق الطريفة أن السيدة سلزبرجر كثيراً ما كانت تحدثنى عن والدها (أدولف إس أوخس ADOPH S. OCHS) . ومن بين أهم ما أخبرتنى به أنه لم يكن من بين قدماء الصهاينة ، وأنه لم يكن من المحبذين لتأسيس دولة يهودية . ومع ذلك فإن يهود أمريكا قد وقعوا بالتدريج ضحية الصهيونية ، وهى حركة قومية يعتنقها البعض إلى درجة اعتبارها ديناً . ومما يستحق التنويه أنه فى الوقت الذى تؤكد فيه التعاليم الأخلاقية لكل الديانات السماوية ، بما فيها تعاليم موسى وعيسى ومحمد ، على أن كل البشر متســـاوون .. نجد أن الصهيونية المتطرفة تعتقد بأن قتل غير اليهود لا يخضع لأى حساب أو عقاب .

والآن مضت خمسة عقود يتعرض فيها الفلسطينيون لاضطهاد الصهاينة دون وازع أو خوف من عقاب . لقد قتل الإسرائيليون أكثر من ١٠٠ من المدنيين العرب الذين احتموا بقاعدة الأمم المتحدة فى قانا (لبنان) بإطلاق الصواريخ عليها. وفى هذا الصدد يشرح الصحفى الإسرائيلى (أريح شافيت ARIEH SHAVIT) وقائع تلك المجزرة قائلاً (إننا نعتقـــد الآن وبكل اليقين ، والبيت الأبيض معنـــا ، والكونجرس فى أيدينـــا ، وصحيفة نيويورك تايمز فى قبضـــتنا ، أن حيـــاة غيرنا ليس لها من القيمـــة ما لأرواحنا ، نحن اليهود) .

ويرى (إسرائيل شاهاك ISSRAEL SHAHAK) وهو يهودى ضد الصهيونية أن إسرائيل اليوم (لا تقيم ديانتها على أخلاقيات العدالة ، فهم لا يقبلون العهد القديم كما سجل ، وإنما يرجع المتدينون من اليهود إلى التلمود ، وبالنسبة لهم تعتبر قوانين التلمود هى " إنجيلهم " . ومن تعاليم التلمود أن اليهودى يمكنه قتل غير اليهودى دون أن يقع تحت طائلة أية عقوبة . وجاءت تعاليم المسيحية لتقطع الصلة بتعاليم التلمود ، فيدعو المسيح إلى تضميد الجرحى ومواســـاة المظلومين. لكن الخطر الذى تعـــرض له

المسيحيون فى الولايات المتحدة يكمن فى أنهم قد اتخذوا من إسرائيل أيقونة مقدسة وبالتالى وقعوا فى شراك الصفح والتبرير لكل ما تفعله إسرائيل ، حتى أنهم يزعمون أن القتل الوحشى ، إنما هو نوع من أوركسترا الإرادة الإلهية !!

ومع هذا .. فإننى لست وحدى حين أقترح أن الكنائس فى الولايات المتحدة تمثل أخر دعم منظم كبير للحقوق الفلسطينية . وأداء هذا الواجب إنما يعزى إلى علاقاتنا التاريخية لموطن المسيح من ناحية ، وإلى القضايا الأخلاقية المرتبطة بمساندة ما ندفعه من دولارات لضرائبنا لما يرتكب من انتهاكات لحقوق الإنسان بموافقة الحكومة الإسرائيلية.

والحاصل أنه طالما كانت إسرائيل والمخلصون لها من أعوانها من يهود الولايات المتحدة واثقين من أن الرئيس ومعظم أعضاء الكونجرس فى أيديهم ، فإن ما يقلقهم هو القواعد الشعبية الأمريكية ، وهم أولئك المسيحيون من ذوى النوايا الحسنة ، والذين ينشدون إقرار العدل من الناس .

ولمدة طويلة ، ظل هؤلاء المسيحيين غير واعين بما كانوا يجهلونه من أمور إسرائيل.. إنهم ما يزالون معرضين للدعاية والدعوة الملحة من أنصار إسرائيل فى داخل بلادهم. ثم إنهم عندما يسافرون إلى أرض المسيح فإن معظمهم إنما ينظم رحلته تحت الرعاية الإسرائيلية. والحال كذلك ، لم يكن من المحتمل على الإطلاق أن يلتقى مسيحى أمريكى بفلسطينى ، أو أن يتاح له معرفة الأسباب الحقيقية للصراع الفلسطينى الإسرائيلى .

ومما يدعم ذلك الاتجاه الإسرائيلى ما حدث لأعضاء بعض الوفود ، التى ذهبت إلى إسرائيل بواسطة إحدى وكالات السفر الفلسطينية .. فقد تعرض الأعضاء لاستجواب مرهق من قبل السلطات الإسرائيلية عن السبب فى اختيار تلك الوكالة الفلسطينية فى تنظيم رحلتهم ، وفى عدم اللجوء إلى وكالة سفر يهودية . وقد عبر أحد الأعضاء عن ذلك الإحراج الذى تعرضوا له بقوله (إن الإسرائيليين يتبعون سياسة عدم تشجعينا على زيارة الأراضى المقدسة ، إلا عن طريق وكالات السفر اليهودية) .. وبذلك لا يتاح للمسيحيين أن يتعلموا كل ما لم يعرفوه عن إسرائيل .

(٦) العنصرية فى الجامعات الإسرائيلية

فى أوائل هذا الشهر وفى أثناء وجودى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، التقيت مصادفة بأستاذ جامعى قدير فى جامعة من أشهر الجامعات التكنولوجية وهو من عرب إسرائيل اكتسب الجنسية الأمريكية بعد هجرته ، وقصته باختصار تمثل أحد النماذج فى ممارســة التمييز العنصــرى الإسرائيلى نحو مواطنيها من عــرب إسرائيل .. لقد تخرج صاحبنا فى معهد التخنيون الإسرائيلى فى حيفا، وهو معهد لــه شهرته التى تفخر إسرائيل بأنه نظير لمعهــد إم أى تى فى بوسطن . وحاول بعد تخرجه أن يجد له فرصة عمل فى معهــده ، لكن طلبه كان مصــيره عدم القبول لأعــذار بيروقراطية واهية حسب تعبيره .

وأخذت أتأمل وضع ذلك الشاب وأسباب عدم قبوله بمعهده الذى منحه درجة الدكتوراه . ومن الواضح أن عدم تعيينه لا يجد البتة مبرراً من المبررات المألوفة كعدم توافر المؤهلات العلمية ، وحيث إن صاحبنا لم يصرح بالسبب الحقيقى المستتر وجوباً لم أجد مندوحة من استنتاج عامل التمييز العنصرى الذى لا يشجع ، بل ولا يسمح عموماً لغير بنى إسرائيل بالتعيين فى المناصب الجامعية . وهذا الحرمان ليس مسطوراً فى قانون أو لوائح العرف العنصرى الخبيء ، الذى لايقل بشاعة عن التمييز العنصرى المعلن والمقرر قانوناً ونظاماً .

وتدفع بى قراءاتى فى أحد المواقع الحاسوبية على الإنترنت إلى تحقيق صحفى فى صحيفة هاآرتس الإسرائيلية بتاريخ ١٨ يوليو ٢٠٠١ . وهذا التحقيق يصور حديثاً جرى فى مكتب (دان لاأور) عميد كلية الدراسات الإنسانية بجامعة تل أبيب ، ودار بين (مجموعة السبعة) من الأساتذة ، ممن اصطنعوا لهم شعار (الجامعة لن تظل صامتة) وكان محور موضوعه أسباب ضآلة العدد من المحاضرين العرب (عرب إسرائيل) فى

الجامعات الإسرائيلية ، كما تدل على ذلك الإحصاءات ، التى لم تظهر أى زيادة تذكر فى أعداد ونسب العرب فى تلك الجامعات طوال السنوات الماضية ، ويدل على ذلك ما أورده الأستاذ (زفاى رازي) أحد (مجموعة السبعة) والمحاضر فى قسم التاريخ بكلية الدراسات الإنسانية فى جامعة تل أبيب ، حين ذكر أنه من بين (٤٠٠) محاضر فى تلك الكلية لا يوجد بينهم سوى (٥) خمسة من الأساتذة العرب .

وفى متابعته لتشخيص تلك القضية وصف الأستاذ (رازي) الجامعة بأنها "يهودية"، وبأنها ذات توجهات عدائية ضد العرب بين أوساطها الأكاديمية ، ومن ثم تعمل على استبعادهم . ويستطرد فى شرح رؤيته .. فيقول " دعونا نسمى الأشياء بمسمياتها الحقيقية ، وإنى لأرى – رغم استمرار الجامعة فى إنكار ذلك – أن ثمة توجهات عنصرية هنا تحول دون إدماج العرب فى نطاق الكلية " ، ويعلن عن تعجبه لهذا الوضع، مشيراً إلى حقيقة " أنه بعد أن استوى النازيون على مقاليد السلطة فى ألمانيا ، كان هناك أساتذة يهود فى الجامعات الألمانية بنسبة أعلى كثيراً مما هو موجود بيننا من المحاضرين العرب " .

وفى دائرة نقاش مجموعة السبعة، أبدى الجميع موافقتهم على أطروحات (رازي). ويجيء الأستاذ (هجاى الريخ) أحد أفراد المجموعة والمحاضر بقسم الدراسات الشرق أوسطية والأفريقية بالجامعة نفسها ليضيف متعجباً " كيف يمكن ونحن فى عام ٢٠٠١ أن يطغى على هذا القسم التوجه نحو اعتبار هذا التخصص من نتاج الذكاء الإسرائيلى وحده ؟ وكيف يمكن أن نتصور عدم وجود أى مؤرخ عربى فى قسم دراسات الشرق الأوسط ؟ " ويتابع التعبير عن دهشته مقرراً أنهم فى هذا المنهج الدراسى بدلاً من تعليم الطلاب " اعرف جارك " فإنهم هنا يعلمونهم " اعرف عدوك " .

وفى جميع الأحوال ، فإن الجامعة لا تريد أن تفعل شيئاً لتعيين أساتذة عرب ، ولعله من قبيل التشبيه أن نتساءل عما يمكننا أن نقوله فى شأن أية جامعة لا يحاضر فيها إلا الرجال فى قسم دراسات المرأة ، أو فى شأن أية جامعة فى الخارج ، لا يوجد بها أى محاضر يهودى فى قسم الدراسات اليهودية .

ويستمر النقاش فى موضوع تعيين محاضرين عرب فى الجامعات الإسرائيلية ، فيقدم الأستاذ (سولومو زاند) بعض المؤشرات الإحصائية فى بعض الجامعات :

اسم الجامعة	مجموع الأساتذة	مجموع الأساتذة العرب	مجموع الطلاب	مجموع الطلاب العرب
تل أبيب	١٥٠٠	١٠	٢٦٠٠٠	٦٧٦
بار إيلان	١٣٠٠	٣	١٥٥٠٠	٢٠٠
بن جوريون	—	١٠	١٥٥٠٠	٧١٥
حيفا	—	١٥	١٣١٠٠	٢٣٠٠
الجامعة العبرية	—	١٠	—	—

ولخص الأستاذ المعطيات الإحصائية بقوله أنه منذ ثلاث سنوات ، كان عدد أساتذة الجامعات الدائمين (٤٥٠٠) من بينهم (٣٥) من العـــرب ، وفى التقدير الحالى لا يزيد الأساتذة العـــرب عن (٤٥) من مجموع الأســـاتذة المقدر بنحو (٥٠٠٠) . ولا نريد أن نقوم بحساب النسب التفصيلية لفئتى الأساتذة والطلاب من العرب إلى المجموع الكلى لكل منهما ، فالنسبة ضئيلة للغاية لا تتجاوز فى متوســـط الفئة الأولى ١% ، وفى الفئة الثانية ٢,٥% . ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن نسبة عرب إسرائيل إلى جملة سكان إسرائيل تصل حالياً إلى أكثر من ٢٠% ؛ مما يجعل نسب الأساتذة والطلاب فى الجامعات الإسرائيلية نسباً تدل على مدى العنصرية فى مجال التعليم الجامعى ؛ خاصة فى عدم وجود أى عربى على الإطلاق فى كليات الطب والتمريض والهندسة والقانون ، وهى كما يقال كليات القمة التى ينشدها طلاب إسرائيل يهوداً وعرباً .

أضف إلى ذلك عدم تعيين موظفين عرب فى الأجهزة الإدارية فى الجامعات الإسرائيلية ، فمن بين (١٠٠٠٠) موظف إدارى على مستوى الجامعات لا يوجد بينهم أكثر من (٥) أفراد من العرب ، ويظل التساؤل الوهمى على مختلف المستويات ولمختلف الوظائف الجامعية : ألا يوجد مؤهلون لها من بين العرب ؟ وإجابة فريق السبعة ، بالإيجاب . ويذكرون فى ذلك المقال عدة أسماء مؤهلة لم يتم قبولها فى

الجامعات الإسرائيلية وهاجرت إلى أمريكا فاحتضنتها جامعاتها الكبيرة كجامعات ميتشجان ، وميرلاند وجونزهبكنـــز ، ومعهد جورجيا التكنولوجى ومسجل فى كندا وغيرها من الجامعات الأجنبية . ومن لم يستطع الهجرة من حملة الشهادات العليا و لم تقبله الجامعات .. فإنه يضطر إلى الالتحاق بسلك التعليم الثانوى . ويدعو هنا الفريق إلى العمل الحثيث لمواجهة هـــذه المشكلة ، وينذر (سلوموزاند) بأوخم العواقب إذا لم نستطع تقليص تلك الفجوة بين العرب واليهود فى نطاق الجامعات ، فقد يترتب على ذلك حسب قوله " إننا سوف ننتهى إلى إيجاد نوع من (كوسوفا) فى أرض الجليل " .

ومع ما تثيره مجموعة السبعة من مخاطر العنصرية والاستبعاد نحو العرب فى محيط الجامعة ، إلا أن معظم القيادات الجامعية والتعليم العالى لا ترى أن هناك أية مشكلة فى هذا الموضوع ، ويؤكد رئيس الجامعة (أتامار روبينوفتش) أن تفكير إدارة الجامعة ليس متحجراً ، بل إنه يتسم بالمرونة وتوفير المنح للباحثين العرب ، وأن سياسة الجامعة فى اتجاه زيادة الطلاب العرب ، وأن التشديد والمعايير العلمية الصارمة يتم تطبيقها على المتقدمين ؛ لشغل وظائف هيئة التدريس الجامعى من اليهود ومن العرب على السواء .

ويختتم رئيس الجامعة تعليقه على ما نشرته صحيفة ها آرتس من نقاش لمجموعة السبعة حول الأساتذة العرب بقوله : " إن مطالب هؤلاء الأساتذة اليساريين مدعاة للسخرية ومثيرة للغضب " . وكان من الأولى إذا كان لديهم ما يريدون أن يقولوه ، أن يعبروا عنه لدى رئيس الجامعة أو لدى مجلس الجامعة . وإنه لمن المؤسف حقاً أنهم اختاروا استعراض ذلك على صفحات هذه (الصحيفة) إنه نمط شائع من التعليقات الرسمية فى مواجهة الحقائق!

أما بعـــــد :

تلك بعض المعالم لممارسة التمييز العنصرى فى المحيط الجامعى الإسرائيلى ، وذلك ضد مواطنين إسرائيليين . وإذا كان عرب إسرائيل يتمتعون ببعض الحقوق السياسية فى المشاركة فى الانتخابات .. إلا أنهم محرومون من كثير من الحقوق الإنسانية الأخرى فى

التعليم والصحة والعمل والسكن ، حيث يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية ويتعرضون لمختلف صنوف القهر والاستبعاد ، بل والقتل إذا استدعى الأمر كما حدث فى مظاهراتهم الاحتجاجية فى العام الماضى . كل هذا يحدث فى داخل إسرائيل ، ويقولون إنها دولة ديمقراطية لا يمكن أن توصف بأنها عنصرية .

أما عن عنصرية الاحتلال فى الضفة والقطاع .. فحدث ولا حرج عما نقرأ عنه من صنوف القتل والإبادة بأسلحة الحروب وكأن ما يحدث للفلسطينيين هو ما وصفه المؤرخ البريطـــانى أرنولد توينبى بأنه محاكاة إســـرائيل لما أوقعه النازيون عـــليهم من اضطهاد، وليس من المبالغة أن يقال إنهم تفوقوا على النازية فى هذا المجال .

فى ديربان ، وفيما بعدها ، بل وفى كل مجال لم يعد كافياً أن نردد الصورة العامة والمجردة من أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية ، بل المطلوب التشخيص والتجسيد والتحديد لمظاهر العنصرية فى كل قطاع من القطاعات المجتمعية فى داخل إسرائيل وفى الأراضى الفلسطينية المحتلة ، حتى يتضح للرأى العام العالمى مدى تفشى الممارسات العنصرية الإسرائيلية ضد العرب فى أفعالها وفى أقوالها . ولعل ما سوف يحدث فى ديربان من ضغوط دولية أو تزييف للحقائق أو تجاهل للواقع ، سوف يلفت أنظارنا إلى أهمية التركيز على جانب العنصرية الإسرائيلية ، كبعد من أبعاد معاركنا النضالية والحضارية مع إسرائيل ومناصريها أينما كانوا ، ومهما هددوا وتوعدوا ، وسواء حضروا أو غابوا .

(٧) محاكمة شارون على جرائمه ضد الإنسانية

هو رئيس وزراء إسرائيل آريل شارون الذى عرفه التاريخ بأنه سفاح الأسرى المصريين من جنودنا البواسل عام ١٩٥٦ ، ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى صبرا وشاتيلا غربى بيروت عام ١٩٨٢ ، والاجتياح المدمر لمدن الضفة الغربية الفلسطينية فى رام الله وطولكرم ونابلس وبيت لحم . ومحرقة (الهولوكوست) فى جنين تشبهاً بزعيم النازية هتلر ، فخلال عام ٢٠٠٢ قام شارون – وما يزال – بمحاولاته لإبادة الشعب الفلسطينى ، متمثلة فى أبشع صورها فى مخيمات جنين وتسويتها بالأرض .

ولسنا فى هذه الأسطر ساعين إلى مزيد من التعريف بما يرتكبه آريل شارون من فظائع وجرائم فى أرض فلسطين وشعبها ، فتلك مأساة تدين تاريخ الإنسانية فى مطلع القرن الحادى والعشرين . لكننا نريد أن نشير هنا إلى تلك الهيئة المدنية المعروفة باسم (جماعة العدالة والسلام) فى أوروبا والتى أعدت طلباً إلى السيدة مارى روبنسون المفوض السامى لحقوق الإنسان ، والمفوضية إحدى منظمات الأمم المتحدة . وقد سعت الجماعة إلى التحقيق فى الجرائم ، التى ارتكبها شارون فى صبرا وشاتيلا أثناء غزو الجيش الإسرائيلى لبيروت عام ١٩٨٢ ، وتقديمه لمحاكمة دولية . ولن يكون بعيداً ذلك اليوم الذى سوف تتواصل الدعوة فيه إلى التحقيق معه فى بقية المجازر ، التى لطخت شرفه وشرف دولته ، إن كان لديهما شرف !! ومع لجنة الأمم المتحدة لتقصى الحقائق فى جنين يتملك شارون رعباً قاتلاً خشية أن تستغل نتائج التقصى فى تقديمه للمحاكمة كمجرم حرب .

وفيما يلى ذلك الطلب الذى قدمته (جماعة العدالة والسلام) إلى المفوض السامى للأمم المتحدة لحقوق الإنسان ، داعية إلى تأليف لجنة تحقيق دولية عن جرائم آريل شارون ضد الإنسانية .

وقد وقع على هذا الطلب بالموافقة على تقديم شارون للمحاكمة حتى يوم ٤/١٦ عدد ٤٩٦٥٢٤ توقيعاً من مختلف أنحاء العالم ، والمأمول أن يصل هذا العدد إلى مليون توقيع . لذا أدعو كل مصرى إلى الاطلاع على شبكة الإنترنت وإلى ما توضحه الجماعة من طريقة للتوقيع حيث يوجد نص الطلب لتكوين لجنة المحاكمة ، ومجرد التوقيع على الصيغة الموجودة فى صفحة الموقع ، وهى :

http:/www.petitiononline.com/warcrime/

وفيما يلى ترجمة لنص الطلب المقدم إلى المفوض السامى بتشكيل تلك اللجنة الدولية لمحاكمة شارون .

طلب بتشكيل لجنة تحقيق دولية فى جرائم آريل شارون ضد الإنسانية

إلى السيدة / مارى روبنسون – المفوض السامى لحقوق الإنسان

" يعلمنا التاريخ أنه طالماً لم يتم القيام بواجب العدالة ، فإن شبح الحرب سوف يعاود الظهور " **القاضى كلود جوردا**

نحن الموقعين الممثلين لشعوب هذا الكوكب ، ندعو – وبإلحاح واستعجال – السيدة / مارى روبنسون إلى العمل على تكوين لجنة للتحقيق فى تورط آريل شارون فى جرائم حرب ضد الإنسانية ، وفقاً لمبادئ الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، وقرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة أرقام : ٢٦٠ ، ٢٣٩١ ، ٣٠٧٤ ، وقرار مجلس الأمن رقم ١٢٩٦ ، وهى القرارات التى صدرت فى شأن ضحايا مذبحة اللاجئين فى مخيمات صبرا وشاتيلا فى لبنان . ولقد أكدت هذه القرارات من الأمم المتحدة أن مرتكبى الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب ، لابد من محاكمتهم وعقابهم العقاب المستحق .. كذلك أوضحت بجلاء أن الحماية التامة للمدنيين فى قطر محتل تبقى فى يد جيش الاحتلال .

وفى عام ١٩٨٢ كان الجيش الإسرائيلى قوة احتلال فى بيروت (لبنان) – ووفقاً للقوانين الدولية – تقع عليه مسئولية حماية جميع المدنيين الخاضعين لسيطرته . وفى ذلك الوقت كان الجيش الإسرائيلى تحت القيادة الكلية لوزير الدفاع ، وكان آريل شارون هو ذلك الوزير .

لقد قام بزيارة بيروت ، ووعد بتقديم جميع صنوف المساندة لحلفاء إسرائيل من المليشيات المسيحية اللبنانية ، وهو بنفسه الذى أعطى الضوء الأخضر لتلك المليشيات لاقتحام مخيمات صبرا وشاتيلا غربى بيروت ، مما تسبب فى مذابح وفظائع واغتصاب مئات من المدنيين العزل من السلاح ، وبخاصة من بين النساء والأطفال .

وفى أثناء ذلك كله ، لم يكن الجيش مجرد مراقب للأحداث فى المخيمات ، أو أن دوره اقتصر على ألا يفعل شيئاً لإيقاف المذبحة ، لكنه فى واقع الأمر قام بتمهيد الطريق لدخول المليشيات إلى قلب المخيمات . وكان لديه أوامر مباشرة وقاطعة من وزير الدفاع بعدم التدخل وإطلاق يد المليشيات اللبنانية المسيحية، وتقديم العون اللازم لها .

وفى هذا الصدد ، يرى القاضى ريتشارد جولدستون " أن ثمة واجباً قاطعاً على القادة السياسيين والعسكريين باتخاذ الخطوات المناسبة لحماية المدنيين عندما يصدرون أوامرهم . وفى المواقف التى تكون فيها حياة المدنيين معرضة تعرضاً واضحاً للخطر ، فإن الشخص الذى يصدر الأوامر ، يتحمل مسئولية أكبر من أولئك الذين يقومون بتنفيذها " .

ومع انتشار الأخبار عن مذابح مخيمات اللاجئين فى صبرا وشاتيلا ، استبد الغضب بالرأى العام الإسرائيلى ، وخرج فى مظاهرات مطالبة باستقالة آريل شارون ، وبإجراء تحقيق فى ذلك الحدث . وقام الكنيست الإسرائيلى بتعيين لجنة برلمانية للتحقيق فى تورط آريل شارون فى هذه الفظائع اللاإنسانية ، وتبين من نتائج التحقيق أن آريل شارون مسئول عما ارتكبته الميليشيات المسيحية اللبنانية من أعمال وحشية . وترتب على ذلك إجباره على تقديم استقالته من منصب وزير الدفاع. بيد أنه لما كان آريل شارون بطبيعة الحال شخصاً إسرائيلياً، وأن الجرائم التى ارتكبها لم تكن فى حق مواطنين إسرائيليين ، لم يجر اتهامه على الإطلاق ، و لم يمثل أمام أية محكمة قضية إسرائيلية .

واليوم ، آن الآوان ، وقد تجمع كل الشواهد والوثائق لتكوين لجنة تحقيق لتقديم كل أولئك المسئولين إلى ساحة العدالة ، بصرف النظر عن مكانتهم الاجتماعية أو السياسية .

ولتسود العدالة ، ولتضمد جروح من تبقى من الضحايا الأحياء .

المخلصون

توقيعات ٤٩٦٥٢٤ من مختلف

أقطار العالم حتى تاريخ ٤/١٦

(٨) صناعة الهولوكوست
تأملات فى استغلال الآلام اليهودية
تأليف ج. فنكلستاين
الناشر مطابع فيرسو ، نيويورك ٢٠٠٠

المؤلف ودوافع التأليف :

مؤلف الكتاب يهودى أستاذ بجامعة سيتى فى نيويورك ، ومن كبار المشاركين فى المجلة اللندنية لعرض الكتب ، ينتمى فكراً إلى اليسار الأيديولوجي ، ومع يهوديته فإنه ليس صهيونياً ، كعدد قليل من رجال الفكر فى الولايات المتحدة الأمريكية .

والكتاب ملئ بالحواشى المرجعية توثيقاً لمقولاته وأحكامه ، وبعض المصادر التى اعتمد عليها فى تحليلاته غير المسبوقة ، وغير معروفة لكثيرين من العرب الذين تناولوا قضية الصراع العربى الإسـرائيلى . ومما تجدر الإشـارة إليه فى صـدد قيمة الكتاب يقر الدكتور (آفى شلاتيم) الأستاذ بكلية سـانت انتونى بجامعة أكسـفورد . يقول هذا الأسـتاذ اليهودى (إننا هنا مع كتاب علمى رصين قاطع ، وعلى درجـة عالية من الأصالة والأمانة العلمية) . كذلك يشير المؤلف إلى أنه عرض فصول الكتاب فى مراحله المختلفة على بعض المفكرين اليهود ، ومن بينهم عالم اللغويات الفذ " نعوم تشومسكى ".

ويهدف الكتاب – كما أشار مؤلفه – إلى مناقشة وتفنيد كثير من المسلمات والدعاوى المرتبطة بوقائع المحرقة التى تعرض لها اليهود ، وغير اليهود ، فى اضطهادهم النازى وبخاصة فى (معسكر أوسوتز بألمانيا) ، وفى غيرها من القطار التى اجتاحتها جيوش هتلر كبولندا والنمسا والمجر أثناء الحرب العالمية الثانية . وإذا كانت وقائع ذلك الحدث صحيحة تاريخية إلا أنه قد تم تضخيمها وتزييفها واستغلالها البشع ، تاريخاً ورمزاً وذاكرة

لكى تصبح أيديولوجية ذات معان سياسية وعنصرية وطبقية ، كما أنها قد غدت سلاحاً أيديولوجيًّا استخدمته إحدى الدول ذات القدرات العسكرية الهائلة ، وذات سجل مشين فى حقوق الإنسان ، لكى تطرح نفسها الدولة (ضحية) " .. وبهذا المفهوم " اكتسبت أكثر الجماعات العرقية مكان "الضحية" – الوهمية طبعاً – وقد نجم عن هذه الصفة أيضاً أن اكتسبت حصانة ضد النقد مهما كان تبريرها " وتلك الدولة هى إسرائيل ، مستغلة حالة الضحية لتدين كل من ينقدها بجريمة (معاداة السامية) .

ومن دوافع تأليف هذا الكتاب ما رواه المؤلف من سبب تعجب والديه لما ينتابه من شعور بالنقمة والسخط لما يجرى من تشويه وتزييف وتضخم لجرائم النازية ضد اليهود ، فجاءت إجابته الأكثر توضيحاً (إنهم استغلوا ذلك الحدث لتبرير السياسات الإجرامية للدولة الإسرائيلية ودعم الولايات المتحدة لتلك السياسات ، فضلاً عن الحملة الجارية لصناعة الهولوكوست بغية ابتزاز الأموال من أوروبا من أجل المحتاجين من ضحايا وقائع المحرقة ؛ مما أفقدها دلالاتها الخلقية والإنسانية) .

ويضيف إلى تلك الدوافع لهذا الكتاب اعتماد ما أحاط بصناعة الهولوكوست وأجوائها ؛ مما تنسجه الذاكرة من معان وتصورات تشكلها المصلحة والتوجهات السائدة . وفى هذا الصدد يشير المؤلف إلى أن أفاعيل الذاكرة وإضافاتها وتشكيلاتها (مستمدة من أيديولوجية القوة والطغيان والمصالح المكتسبة ؛ مما يوفر مصداقية مقولة هنرى فورد الشهيرة بأن التاريخ هراء) ! .

ومن المصادفات العجيبة أن تقع قراءتى لهذا الكتاب أثناء نظر مجلس الشيوخ الأمريكى قراراً بالموافقة على استمرار الحكومة الفيدرالية فى الدعم المالى لمتحف الهولوكوست التذكارى ، الذى أقيم منذ بضع سنوات فى وشنجتون ، تجليداً لذلك الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى الحقبة النازية قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها . وتابعت وقائع تلك الجلسة على التليفزيون الأمريكى واستمعت إلى كلمات الأعضاء من الحزبين الجمهورى والديمقراط ، الذين تباروا فى تأييد ذلك القرار ، ومشيدين بدور هذا المتحف التعليمى والثقافى ، وقيمته التاريخية وما يجسده من معان ، بل واعتبره أحدهم بأنه لا يقل أهمية عنة متحف سمثونيان العلمى ، الذى يعتبر بحق فريداً فى مجاله

و لم أجد على اللوحة الكهربائية التى تسجل أصـــوات المؤيدين والمعارضـــين إلا صوتاً واحداً ممتنعاً . وأياً ما كان الأمر ، سوف يجد القارئ فى هذا الكتاب مساحات من المعلومات والأفكار والأحكام الزائفة المرتبطة بالهولوكوست وبأخلاقيات الصهيونية فيما يتوافق مع نظائرها مما أورده رجاء جارودى فى كثير من كتابته عن الصهيونية وأساطيرها ودعاواها العنصرية مما عرضه للاتهام بمعاداة السامية وتعرضه للإدانة من قبل القضاء الفرنسى يبدأننا هنا إزاء شهادة شاهد من أهلهم . كما أننا سوف نعرض الأفكار الرئيسية فى الكتاب دون تدخل منا ، وسوف يقتضى ذلك أن نكثر من الاقتباسات المقتطفة من أقوال المؤلف ، وبخاصة فى تلك القضايا والأحكام التى تتعارض أو تنقد أو تسخر أو تأسف من استغلال مأساة الهولوكوست .

محتويات الكتاب المثيرة :

والكتاب يتقسم إلى مقدمة وثلاثة فصول ، أولها " توظيف الهولوكوست " ، وثانياً " المخادعون والمساومون والتاريخ " وثالثاً " الابتزاز المزدوج " . ويثير الاهتمام قبل المقدمة والفصول ما ورد فى الصفحة الأولى من اقتباس لعبارة من كتاب يهودى آخر لمؤلفه (ميشيل برنباوم ، المأساة والانتصـــار ، كمبردج ١٩٩٠ ، ص ٤٥) كما لو كانت شعاراً للكتاب . وترجمتها (يبدو لى أن الهولوكوست كان سلعة تباع ، و لم يكن درساً يجرى تعليمه) ، والعبارة من مقولات الكاهن (أرنولد جاكوب ولف) مدير معهد هلليل بجامعة ييل الشهيرة فى الولايات المتحدة .

أما المقدمة .. فإنها نسرد اهتمام الأصلى للمؤلف بالهولوكوست النازى نظراً لأن والديه كانا من الناجين من الجيتو اليولندى ومعسكرات الاعتقال هناك . بيد أن كل الأفراد عائلتهما كانوا من ضحايا الإبادة النازية . ومع ذلك .. فإن والديه كانت تغمرهما ذكريات الحدث فى حياتهما الخاصة دون العامة ، بل و لم يكن هو وأصحابه من الشباب فى أواخر الأربعينيات يعنون بقصة الهولوكوست ، مع أنهم كانوا على إطلاع واسع ويناقشون مشكلات الحياة اليومية . ولهذا .. فإن أشد ما كان يثير عجبه وشكوكه فيما بدأ يظهر خلال العقود التالية من تدفق الكرب والهم بالذكريات بعد أن ترسخ الهولوكوست لا مجرد فاقعة تاريخية بل أيديولوجية للنفوذ والمال ، ويعلق على

هذه النقلة بقوله (إننى اعتقد أحياناً أن " اكتشاف " يهود أمريكا للهولوكوست النازى كان أسوا مما لو كانوا تناسيته الذاكرة) ، مشيراً بذلك إلى ما يجرى حالياً من (استغلال فج للاستشهاد اليهودى) .

ويحكى فى هذا الصدد موقف صديق حميم لوالده ، كان من زملائه فى معسكر (أوسوتشز) ، معروف بأنه ينتمى إلى الجناح اليسارى وبأنه لم يكن قابلاً للإفساد إلى درجة أنه كان من بين المعارضين لقبول اليهود للتعويضات الألمانية بعد الحرب . بيد أنه مع أيديولوجية الهولوكوست وزخمها قد انقلب تماماً لكى يصبح أخيراً مديرًا للمتحف الإسرائيلى للهولوكوست (ياد فاشيم) . وقد أدى ذلك إلى اعتراف والده بأنه حتى هذا الرجل قد تم إفساده من خلال صناعة الهولوكوست ، حين أعاد صباغة معتقداته من أجل القوة والربح . ويعلق المؤلف على ذلك بقوله (إن جون ستيوارت مل قد أدرك منذ زمن بعيد أن أى صفات للصدق لا تخضع للتحدى المستمر ، سوف تفقد فى النهاية تأثير صدقها حين يتم المبالغة فيها والتضخيم لها لتصبح كذباً وبهتاناً) .

ونختم تلك المقدمة بتأكيد المؤلف على أن صناعة الهولوكوست وحملاتها الجارية من أجل ابتزاز الأموال من أوربا باسم المحتاجين من ضحايا الهولوكوست قد أهدر القيمة الخلقية لشهداء اليهود وحول القضية إلى (شىء أشبه بما يجرى فى كازنيو مونت كارلو) ، ويتابع قوله (لقد كان علينـــا منذ زمن طويل أن نفتح قلوبنا إلى آلام بقية البشـــر .. إنه لمن المهازل الأخلاقية أن نعقد المقارنات بين آلامنا وآلام غيرنا .. وأنت لا تستطيع ، كما قال أفلاطون ، أن تقارن بين شعبيين يعانيان البؤس والشقاء ، فتقول إن أحدهم أسعد من الآخر . وفى مواجهة ما يتعرض له الأفارقة الأمريكيون والفيتناميون والفلسطينيون من آلام وكروب ، كانت عقيدة أمى دائما : أننا جميعا ضحايا لنوع من الهولوكوست) .

توظيف الهولوكوست وتزييف التاريخ :

فى هذا المحور من الكتاب بيان للظروف التى أدت إلى أن ينتقل موقع اليهود الهامشى فى الفترة بين عام ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ ؛ أى قبل هزيمة يونيو إلى ، موقع مؤثر وضاغط فى المجتمع الأمريكى ، فيما بعد تلك الفترة حتى اليوم .

وتشير الدلائل على أنه خلال تلك الفترة الأولى لم يظهر اهتمام بقضية الهولوكوست سواء من الأمريكيين أو من الهيئات اليهودية فيها . وظل اليهود معنيين باتباع المناخ السياسى السائد فى الولايات المتحدة قانعين بالرغبة فى الاندماج فى الحياة الأمريكية، وعدم إثارة أى مشكلات مع ألمانيا؛ خصوصاً بعد أن تم الاتفاق بين المجلس العالمى لليهود مع ألمانيا على التعويضات التى حصلوا عليها فى بداية عام ١٩٥٠ . ومرد ذلك إلى أن السياسة الأمريكية كانت حريصة منذ عام ٤٩ على " محاصرة موجة العداء لألمانيا " التى أصبحت حليفتها فى مواجهة أعدائها من السوفيت والشيوعيين ، وشاع لدى الرأى العام الأمريكى بأن ثمة تعاطفاً بين اليهود وبين السوفيت ، الذين اتخذوا من الهولوكوست رمزاً لما يمكن أن يكون عليه اضطهاد الشعوب .

لذلك رأى يهود أمريكا أن الحكمة تقتضى اجتناب الحديث عن ذلك الحدث وتداعياته ، وانتهى الأمر بهم إلى الارتماء فى أحضان المكارثية والتعاون معها فى كراهية السوفيت وأشياعهم ، ولم يظهروا معارضة على الحكم بإعدام أسرة روزنبرج التى اتهمت بميولها الشيوعية ، بل ذهبت مجلة (التعليق) لسان حال رابطة الجماعة اليهودية فى مقال افتتاحى لها عام ١٩٥١ إلى أن تلك الأسرة ليست يهودية فى الحقيقة ، وذلك رغبة فى مجاراة التيار السياسى والولاء له، وتأكيد هويتهم فى مقاومة الشيوعية . وتتابع هذا الولاء حين انضم عدد من اليهود إلى التنظيمات اليمينية المكارثية المتطرفة ، وقاموا بالمساعدة فى تمويلها . كما استتبع هذا أن أغلقوا عيونهم عن استقبال الولايات المتحدة لمجموعات من قدماء المحاربين الألمان وضباط الحرس النازى (إس إس) . وبلغ ادعاؤهم فى إظهار مقاومتهم للشيوعية باتهام السوفيت بأنهم من " أعداء السامية " ، (وأن ستالين سوف ينجح فيما لم ينجح فيه هتلر فى القضاء على اليهود ، كما رأوا فى غزو الجيش الروسى للمجر عام ٥٦ محطة أولى لممارسة معسكر روسى شبيه بمعسكر أوشوتز الألمانى) .

ويدلل المؤلف على عدم الاهتمام الخاص بموضوع الهولوكوست ، سواء من طرف الأمريكيين أو الهيئات اليهودية فى فترة ما قبل ٦٧ بقصة طالبة يهودية كانت تنوى بحث ذلك الموضوع فلم تجد من مصادره باللغة الإنجليزية إلا مصدرين ، بل إن أستاذها اليهودى المشرف لم يشجعها على المغامرة بدراسته لأنه (سيكون مقبرة لها)

ويضيف المؤلف دعماً لظاهرة عدم الاهتمام بموضوع الهولوكوست أو أى نشاط تذكارى له بما أسفرت عنه نتائج بحث قام به عالم الاجتماع اليهودى ناتان جليزر عام ٥٧ من أن الاهتمام بالاضطهاد النازى ، بل وبدولة إسرائيل ذاتها ، لم يكن مما يشغل بال الجاليات اليهودية فى حياتها العامة .

ويفند المؤلف ما أسماه بالتفسير التقليدى لعدم الاكتراث بتلك القضايا والذى يزعم بأن اليهود كانوا يجتهدون فى كبت تلك الأحداث لما تثيره من مرارة نفسية عند تذكرها . ولكنه يرى أن كثيراً منهم كان يريد أن يبرز أحياء تلك الذكرى عندما تسنح الفرصة ، وهذا ما حدث بعـــد هزيمة يونيو عام ٦٧ وبالتعبير المصـــرى الشعبى " أرادوا أن يتمسكنوا حتى يتمكنوا " .

ومن مظاهر عدم الاهتمام الظاهرى ما يشير إليه المؤلف أيضًا من تناقص العضوية فى المنظمات الصهيونية فى أمريكا من مئات الآلاف عام ٤٨ إلى عشرات الآلاف حتى عام ٦٧ ، كمـــا أنه قبل هـــذا العام (لم يتطلع إلى زيارة إســـرائيل من يهود أمريكا إلا بمعدل واحد لكل عشرين منهم) .

ويشير المؤلف كذلك إلى أنه فيما بين عامى٤٨ حتى بداية ٦٧، لم يكن لإسرائيل موقع ملحوظ فى التخطيط الاستراتيجى الخارجى فى السياسة الأمريكية. ويدلل على ذلك بأن اعتراف الرئيس الأمريكى ترومان بدولة إسرائيل عام ٤٨ قد جاء نتيجة لاعتبارات داخلية ؛ كسباً لأصوات اليهود فى الانتخابات ، وقد كان ذلك متعارضاً مع موقف وزارة الخارجية التى كانت تخشى من إغضاب العرب بمثل ذلك الاعتراف . ويستدل على ذلك أيضاً بأن الإدارة الأمريكية فى عهد الرئيس إيزنهاور أعادت التوازن فى موقفها بين العرب وإسرائيل ، حين كان القرار الأمريكى بعد العدوان الثلاثى على مصر عام ٥٦ ، داعياً إسرائيل إلى الانسحاب من سيناء .

التمكن اليهودى والانحياز الأمريكى :

سرعان ما أدرك يهود أمريكا بعد الحرب ٦٧ أن إسرائيل تمثل قوة ضاربة لحماية المصالح الأمريكية ، وعلى حد تعبير المؤلف (اكتشف قادة الصهيونية وأذاعوا أن

إسرائيل هى المدافعة عن الحضارة الغربية والمصالح الأمريكية ضد تلك القبائل العربية المختلفة) . وفى تلك النشوة التى استأسدت النعامة من خلالها يأخذ موضوع الهولوكوست فى الظهور لا كمجرد حادث اضطهاد فحسب ، بل كأيديولوجية فى الفكر والفعل . وتدخل إسرائيل – إلى جانب ضحايا النازية مركز الدائرة اليهودية والأمريكية – وتبرز الدعوة إلى دعم إسرائيل بكل الوسائل نظراً لما أحاط بها من عزله وانكشافها أمام جموع العرب ؛ مما يتيح ظهور مخاطر لمحاولات الإبادة مرة ثانية كما حدث فى ألمانيا. وهكذا على حد تعبير المؤلف (غدت إسرائيل دينًا لليهود فى أمريكا)، ويدلل على هـــذه الصحوة ما طرأ على صحفية نيويورك تايمز من زيادة فى مســـاحة ما تنشره من أخبار إسرائيل . ففى الفترة ما بين عام ٥٥–٥٦ لم تتجاوز مساحة النشر ٦٠ بوصة/عمود ، بينما بلغت عام ٧٥ وحده ما يتجاوز ٢٢٠ بوصة/عمود ، ثم يقدم لنا نموذجاً لمثقفة يهودية كانت تعتبر حجة فى أدبيات الهولوكوست وما طرأ عليها من تغير كامل فى مواقفها .. ففى فترة الكمون ، وجهت نقدًا عنيفًا لإسرائيل عام ٥٣ تتهمها فى أحقيتها للمطالبة بتعويضات من ألمانيا فى الوقت ، الذى تتفادى فيه تحمل مسئولياتها الأخلاقية والمادية نحو اللاجئين الفلسطينيين. ولكن سرعان ما أظهرت حقيقتها بعد ٦٧ وأصبحت من أشد الناس حماسا لإسرائيل واعتبارها حسب تعبيرها (النموذج الجماعى لصورة اليهود فى العالم الحديث) .

ويخلص المؤلف إلى تقرير ظاهرة الانتهازية استغلال الظروف فى مواقف يهود أمريكا إزاء إسرائيل ، حين استخدموا فى تردد وتخوف حدث الهولوكوست باعتباره مبرراً لضعفهم ، وعدم إثارته لاحتمال أن يكون عبئًا عليهم فى اندماجهم الأمريكى . لكنهم حين استشعروا القوة وأهمية الدور ، قامت صناعة الهولوكوست أيديولوجية لخدمة مصالحهم ، اعتبارها (أفضل سلاح لديهم لصرف النظر عن الانشغال العالمى بالاحتلال الإسرائيلى وما قام به من فظائع) .

ومن ثم انتشرت لديهم مقولة الاتهام بالعداء للسامية لكل نقد يوجه لليهود ولإسرائيل ، بل وكثيرًا ما كانت المنظمات اليهودية تدق أجراس الخطر من انتشار العداء للسامية وبخاصة ، عندما يظهر أى نقد لأنشطتهم السياسة والاقتصادية، ومما

يحرزون فيها من نجاح . وكانوا يزعمون فى البداية أن هويتهم تلتقى مع ثقافة الأقليات من أولئك الضحايا ، الذين يعنون القهر والاستغلال فى المجتمع الأمريكى من الأفارقة الأمريكين والإسبان والأمريكيين الأصليين " الهنود الحمر " وجماعات النساء . ومع الشعور بالقوة تنقلب الثقافة المستضعفة لديهم مدعين بأنهم شعب متميز مختار ، وأنهم استطاعوا أن يجعلوا من المحنة والتغلب عليها أداة لنجاحهم ، وأن معركة الأيام الستة قد (أدى الانتصار فيها والضوء المنبعث من ذلك الانتصار إلى التكفير والتعويض عن ظلام الإبادة البشرية النازية) ، على حد تفسيرات بعض الكهنة من اليهود .

ومن آيات التحول أنهم قد تحللوا من تخالفهم مع الأفارقة الأمريكيين عندما امتلكوا مصادر القوة والتأثير ، كما عارضوا إعطاء السود أو الأقليات أى ميزات خاصة فى التعليم أو العمل فيما يعرف بقانون " افيرمتفاكتشن "، دفاعًا عن مصالحهم. وقد أدى إلى أن يعلن " جيسى جاكسون " أحد أبرز قيادات السود فى أمريكا إلى القول بأنه قد مَلَّ من استخدام اليهود لحادثة الهولوكوست فى كل زمان ومكان . وتأتى استجابة أحد قادة الصهيونيين فى أمريكا تعليقًا على تلك المقولة (إننا سوف نقاوم أى مصدر أو أى طريقة أو أى درجة ، وأيا ما كانت الأسباب ، أى محاولة للإضرار بمصالحنا ، لأننا نقف اليوم على أرض صلبة .. لقد تمكنت إسرائيل بفضل تسجيلها الكثيف فى الولايات المتحدة من أن تضع بشجاعة أولئك الفلسطينيين الجامحين فى مكانهم ، وسوف يستطيع يهود أمريكا أن يضعوا بشجاعة ، السود فى أماكنهم) .

وفى صدد الشعور بالقوة والنفوذ الذى بلغه اليهود وتشبعت به منظماتهم ، يدلنا المؤلف على ما يدعم المؤلف تكوين هذا الشعور من خلال سيكولوجية يرسخونها فى تنشئة أطفالهم مبنية على عقيدة أن (اليهود هم الأفضل) ، وأن الهولوكوست هو (الصيغة السلبية لما تمخض عنه من الجانب الإيجابى فى تقدمهم) والواقع أن متوسط دخل اليهودى الأمريكى يمثل ضعف متوسط دخل الأمريكى ، وأن ٢٠% من أساتذة الجامعات الأمريكية من اليهود ، وأن ٤٠% منهم شركاء المؤسسات القانونية ومكاتب المحاميين وفى الشركات المالية والتجارية، ونضيف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من صناع السياسة فى ولاية كلنتون من اليهود . وزيرة الخارجية ، مستشار مجلس الأمن القومى ،

سفير أمريكا فى إسرائيل ، والوسيط الأمريكى فى مفاوضات السلام . ومن التطورات الجديدة فى تنامى نفوذ اليهود ، ترشيح الحزب الديمقراطى لأحد قادة الصهيونية وعضو مجلس الشيوخ ليبرمان لمنصب نائب رئيس الجمهورية فى الانتخابات القادمة ، وقد كان من بين أهم الشخصيات التى حملت لواء الدعوة إلى نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس وموافقة الكونجرس على هذا القرار (لكن من نوع القرارات غير الملزمة للحكومة) . ومن الطريف ما سمعته أثناء متابعتى للدعاية الانتخابية الأمريكية ما سمعته من زوجة ليبرمان بأنها تعتز بكونها من سلاله أولئك الشهداء فى مذبحة الهولوكوست .

الهولوكوست حدث تاريخى فريد :

الفكر اليهودى السائد هو أن حدث الاضطهاد الذى جرى فى الفترة النازية هو واقعة تاريخية فريدة، لا نظير لها فى التاريخ البشرى ماضينا، ولن يكون لها مثيل حاضراً أو مستقبلاً ، ومن ثم أصبحت تداعياتها عقيدة ، لأنها واقعة لن تماثلها واقعة أخرى . ولما كان ذلك كذلك .. فإن تقديم تفسير لفرضية التفرد يصبح أمرًا غير معقول وغير ممكن ، ولما كانت حدثاً متفردا يصبح من العسير تفسـيره ، ولا يمكن تفسـيره لأنه متفرد . وقد ذهبت شطحات الخيال الأسطورى ببعض قادة الصهيونية إلى اعتبار الهولوكوست سرًّا من الأسرار الدينية، فهو لا يقبل أى تساؤل أو تطلب أية إجابة عنه، حيث إنه خارج سياق التاريخ ، إن لم يكن فيما وراء التاريخ . لذلك يعجز عن أن يحيط به أى وصف أو إدراك أو معرفة . ولما كان متجاوزا للتاريخ ، لا يمكن الحديث عنه أو وصفه أو نقل خصائصه للناس .

ووصلت الأسطورة إلى حد أن محاولة التمثل العقلانى للهولوكوست ووصفه وتفسيره إنما يصل إلى مرتبه إبكاره ، ثم أن مقارنته بغيره من ألوان الاضطهاد والتعذيب إنما يعنى خيانة تامة لتاريخ اليهود . ويستطرد منطق الأسطورة إلى القول بأن تفرد الهولوكوست مرتبط بتفرد الشعب اليهودى ووجود ه. وحدث أن نال شيمون بيريز

قسطا من التأنيب ، حين جرى على لسانه مرة أن القرن العشرين قد تعرض لنوعين من الهولوكوست أحدهما ما فعلته النازية ، وثانيهما ما أحدثته القنبلة النووية فى هيروشيما. وفى السنتين الماضيتين أتهم بعض الصحفيين والمفكرين ممن قارنوا ما فعله الصرب فى كوسوفا بما فعله النازيون فى معسكرات التعذيب بمعاداة السامية .

لقد تعد بعض المحللين اليهود فكرة "التفرد" لحادث معسكرات التعذيب النازى . ومن المسلم به أن ذلك مناقض لمنطق التاريخ ، إذ إن كل واقعة تاريخية هى متفردة إلى حد ما؛ لارتباطها بسياق معين من الزمان والمكان ومن الدوافع التى أدت إليها ، ولكنه ليس تفردًا مطلقًا أسطوريًّا ؛ إذ إن كثيرًا من وقائع التاريخ قد تتشابه وتشترك مع أخرى فى بعض مواصفتها وخصائصها ، ويتساءل المؤلف عن عقيدة التفرد والاختيار لدى الشـــعب اليهودى ، فيعتبرها أنواعًا من شـــعارات الدعاية التى يمكن أن تترسخ مع التكرار والتوظيف فى مختلف المناسبات ، من منطلق أن محارق الهولوكوست النازية كانت تستهدف فى المقام الأول اليهود من قبيل الحقد على تميزهم فى نشاط "السوق"، وأن من تعرضوا أو نجوا من نيرانها من غير اليهود ، كان من قبيل الصدفة وجاء أمرًا عابرًا وغير مقصود . وتسير بعض الشواهد التاريخية إلى أن تلك المحارق يشير المؤلف إلى أن الهولوكوست النازى (قد أباد حوالى ٢,٥ مليون من السكان الكاثوليك فى بولندا وملايين من السوفيت والقوميات الأوربية الأخرى) لكن العقيدة والأيديولوجية الصهيونية تتناسى ذلك ، كما تناسب ما أشار إليه المؤلف أيضا فى مثال حادث ، فإننا فى جنوب لبنان حين أمطرت الطائرات الإسرائيلية بصواريخها مقر الأمم المتحدة فقتلت أكثر من مائة من اللبنانيين المدنيين الذين وفدوا إلى ذلك المقر احتماءً بحصانة مواقع الأمم المتحدة . وقد علقت صحفية هآرتز الإسرائيلية على هذه الجريمة بأن (إسرائيل تصنع ذلك دون حرج ، فلدينا المؤسسات اليهودية الأمريكية القادرة على تبرير هذا العمل) .

ويخلص المؤلف إلى أن كثيرًا من أدبيات الهولوكوست ، وما عرف باسم حل هتلر الأخير لإبادة اليهود إنما يفتقد إلى المصداقية العلمية .. إلى أن كثيرا من حقائق هذا الموضوع مزيفة. ولكن برامج الدعاية والتزييف جاءت لترسخ أيديولوجية

الهولوكوست (تفرد اضطهاد اليهود ، تفرد الشعب اليهودى / البراءة الدائمة لأفعال اليهود / الدفاع غير المشروط عن إسرائيل / الدفاع غير المشروط عن المصالح اليهودية/ اتهام غير اليهود بالكراهية لهم من منطلق (العداء للسامية)، ويضيف إلى ذلك مفصلاً إدعاء اليهودى بأن كل محاولة لنقدهم إنما تعزى إلى الشعور بمعاداة السامية . وحب عقيدتهم فإن ، (ما فعله هتلر كان شرًّا لمجرد ارتكاب الشر ، ليس له من هدف ، أكثر من إبادة الشعب اليهودى .. فإنه يجب تبرئة اليهود وعدم إلقاء أى ذنب عليهم استدعى ذلك التعذيب . واتسعت آفاق التبرئة لليهود ؛ إذ إن (كل شىء مسموح لليهود فى علاقاتهم مع بقية البشر ، فالخطأ دائما من غيرهم سواء جاء من العرب مع إسرائيل أو من السود فى أمريكا) .

لهذا كله .. ابتدع اليهود بعد هزيمة ٦٧ أيديولوجية الهولوكوست ، وتم توظيفها ليجعلوا منها مراكز للبحث ، ومتاحف للذكريات ، وكراس جامعية لتدريسها ، ومناسبات وطنية للاحتفاء بها، ومبررات لابتزاز التعويضات من الدول الأوربية ، مثل: ألمانيا وسويسرا والنمسا وبولندا ؛ مما سنتعرض لـــه فى مراجعتنا التالية لكتاب (صناعة الهولوكوست) .

وفى نهاية السياق تحولت وقائع محددة فى هولوكوست الاضطهاد النازى إلى إيديولوجية الهولوكوست ، ومضمونها سلسلة عجيبة من الدعاوى تزعم (تفرد الشعب اليهودى / تفرد حادث الهولوكوست الذى لم ولن يماثله اضطهاد فى التاريخ البشرى / البراءة الدائمة لأفعال اليهود / الدفاع غير المشروط عن إسرائيل / الدفاع غير المشروط عن المصالح اليهودية / اتهام غير اليهود " الأغيار " بالكراهية لليهود والحقد عليهم واعتبارهم " أعداء الساميين " .. ثم أن كل شىء مسموح به لليهود فى علاقاتهم مع بقية البشر ، فالخطأ دائمًا صادر عن غيرهم ، سواء جاء فى حالة العـــرب مع إسرائيل أو فى حالة السود فى أمريكا . ويضـــيف المؤلف إلى ذلك حين نقتطف من كتابه كل ما بين هلالين – (إن عقيدة الاضطهاد وكراهية الأغيار – غير اليهود – قد أتاحت لليهود ولإسرائيل بالذات أن تقوم بأعمال كثيرة لا يقرها المجتمع البشرى .. فاليهود لهم كل

الحق وبمختلف الوسائل حماية أنفسهم ، حسبما يرونه مناسباً سواء بالتعذيب أو التنكيل أو النابالم أو الصواريخ ؛ إذ إن كل ذلك يعتبر دفاعاً مشروعاً عن النفس) .

دعاوى التفرد وحقوق التميز :

يورد المؤلف أن دعاوى كراهية العالم لليهـــود وأن الاضطهاد النـــازى فى الهولوكوست ، لم يكن انعكاسًا أو تأثيرًا ملحوظًا فى الأدبيات السياسية العامة خلال الفترة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى يونيو ٦٧ ، بل إنها لم تظهر فى الأبحاث والدراسات العلمية قبل ذلك التاريخ .

ومع ذلك .. فإن الفصل الثانى من الكتاب يورد كثيراً من المؤلفات بعد ٦٧ حاولت تأكيد ظاهرة العلاقة الدائرية بين تفرد اضطهاد الهولوكوست وكراهية غير اليهود " الأغيار " لليهود ، باعتبارها سببًا فى تفرد الشعب اليهودى ، أو العكس هذه المعادلة ، انطلاقا أن من تفرد اليهود كان سببًا فى تفرد اضطهادهم وحقد الأغيار (جنتايلز) على تفوقهم . ومن بين المؤلفات التى تنظر لتلك المعادلة ، يخص لنا المؤلف كتاب (ستيفن كاتز) " الهولوكوست فى السياق التاريخى " (٣ أجزاء مطبعة أكسفورد ١٩٩٤) حيث يستعرض " كاتز " آفاق التاريخ الإنسانى كلها ؛ ليثبت أن (الهولوكوست من منظور وقائع التاريخ البشرى كله يعتبر فريداً ؛ نظرًا لما تبين له من استقراء يؤكد أنه لم يحدث من قبل أن دولة قد قررت اعتماد مبدأ دولى وسياسة عملية، تسعى إلى الإبادة الجدية لكل رجل وامرأة وطفل ينتمون إلى شعب معين) . ويعلق أحد الكتاب على ذلك بقوله بأن دراسة كاتز (هى بالتأكيد أيديولوجية متخفية فى ثوب العلم ، أكثر من أى شيء آخر) .

ويقدم المؤلف نموذجاً آخـــر للكتابات المتحيزة بصورة قاطعة ، كما فى حالة (إيلى وسل) مؤلف كتاب " فى مواجهة الصمت " حيث يعتبر الهولوكوست حدثاً تاريخيًّا لا يقارن بأى اضطهاد آخر ؛ فهو سر يعجز العقل عن إدراكه ، بل يصل إلى كونه سرًّا من الأسرار الدينية لا ترقى إليه الأفهام (وأن حقيقة هذا السر إنما تكمن فى الصمت ، والكلمات حوله هى نوع من التناول الأفقى ، بينما الصمت حياله يوفر لك تناولـــه

الرأسى ؛ حيث يمكنك أن تغوص فى أعماقه . ويشـــير مؤلف الكتب إلى أن (وسل) قد أصـــبح رمزاً لتلك الأفكار ، يحاضـــر حولها ويتقاضى ٢٥,٠٠٠ دولار عن كل محاضرة ، وينتهى إلى أن الصمت كالتأمل الصوفى هو أداء فهم ذلك الحث النازى !! .

وإذا كنا قد أشرنا فى مقالنا السابق إلى ما تعرض له شيمون بيريز من تأنيب .. حين ساوى بين الهولوكوست النازى ، وما أسماه القنبلة النووية فى هيروشيما فثمة أمثلة أخرى كثيرة يقدمها فنكستاين على تحريم المقارنة بين الهولوكوست وبين أى جريمة أخرى ، ويذكّر بما ورد فى صحيفة (هيرالدتربيون العالمية) بتاريخ ١٣ أبريل ٢٠٠٠ من أن (اكن لفنجستون) العضو العمالى السابق فى مجلس العموم البريطانى ، والذى كان يقوم بحملة لترشيحه (عمدة) للندن قد أثار ثائرة اليهود فى بريطانيا عندما صرح بأن الرأسمالية الكونية قد اقترفت من الضحايا ، أكثر مما خلفته الحرب العالمية الثانية ، ويرى أنه على مدار كل سنة يقتل النظام المالى الدولى بشراً أكثر مما نجم عن تلك الحرب . وسرعان ما يتصدى لذلك التصريح عضو من حزب المحافظين بمجلس العموم ، محتجًا بأن ذلك إهانة لكل أولئك القتلى والمضطهدين على يد أدولف هتلر ، وأن اتهام (لفنجستون) للنظام المالى الدولى تفوح منه بكل تأكيد رائحة (معاداة الساميين) .

كذلك تعرض فيديل كاسترو لهجوم شرس من أنصار أيديولوجية تفرد الهولوكوست ، عندما دعا إلى أننا فى حاجة إلى "نورمبرج" أخرى (المحكمة التى شكلت لإعدام النازيين بعد الحرب العالمية الثانية) ، لمحاكمة النظام الاقتصادى الرأسمالى المفروض علينا حيث يموت كل ثلاثة أعوام بسبب الجوع وانتشار الأمراض أعداد من الأطفال والنساء أكثر من ضحايا الحرب العالمية الثانية . ويتصدى للزعيم الكوبى (إبراهام فوكسمان) مدير عصبة مناهضة التشويه لليهود من مقرها فى نيويورك صائحاً (بأن الفقر مسألة خطيرة ، وأنه مدعاة للآلام، وقد يكون قاتلاً ، ولكن لا يقارن بالهولوكوست أو بمعسكرات التعذيب) .

ويعلق المؤلف على أن المناظرة فى قضية تفرد الهولوكوست مسألة عقيمة ، ولكنها مع ذلك أصبحت تمثل نوعاً من الإرهاب الفكرى " وأصبحت آلام الغير من الشعوب لا

تقارن . ومع ما فى دعاوى أيديولوجية الهولوكوست من قحط فكرى وتهافت أخلاقى ، إلا أنها قد أخذت تترسخ فى الأذهان والأفعال ، فى المجتمع الأمريكى ، وهنا يطرح السؤال نفسه عن الأسباب التى أدت إلى ذلك . وللتنظير الصهيونى ، وما ارتبط به من عقيدة رؤية للشعب الذى تعرض لها ، كما أن ذلك الاضطهاد لا يقتصر على جعل مجرد جماعة منعزلة عن الآخرين ، بل يرتب مطالب لهم على الآخرين . وخلاصة الرؤية الصهيونية أن تفرد الهولوكوست هو رأسمال أخلاقى ، وهو الملكية النفسية التى ينبغى على اليهود المطالبة بالسيادة عليها ، ومن ثم دعوة الغير للوفاء بمستحقات اليهود عليهم .

وهذا الرأسمال الأخلاقى هو ما يخدم ويعزز قيمة إسرائيل ، فى أن تفرد آلام اليهود يضيف مبرراً للمستحقات الأخلاقية والعاطفية لكل ما تطالب به إسرائيل من الدول الأخرى (وتنطلق تلك المستحقات من تميز اليهود من خلال الهولوكوست ، اعتبار أنفسهم موضعاً للتهديد . ومن ثم فهم جديرون بوجه خاص بأن يمارسوا من الجهود التى يرونها ضرورية للبقاء ، ومن أمثلة تلك الجهـــود إدراك الآخرين بأن كل ما تقوم به إسرائيل من تطوير فى الأسلحة النووية ، إنما هو نتيجة استثارة شبح الهولوكوست الذى قد تتعرض لـــه) ويعلق المؤلف (كما لو أن إســـرائيل لم تكن لتدخل إلى المجال النووى من غير ذلك الشبح) .

والخلاصة أن العقيدة الهولوكوست وكراهية العالم لليهود توفر التبرير الشرعى لقيام دولة إسرائيل ، كما يعزى إليها الكراهية الموجهة لتلك الدولة . (ومن ثم .. فإن الدولة اليهودية هى موطن الحماية الوحيد ضد أى تفجر متوقع لقتل اليهود من قبل أولئك الذين يعتنقون معاداة السامية ، إن كل محاولات للقتل والعنف من قبل أعداء السامية تكمن وراء محاولات الهجوم ، أو حتى عمليات الدفاع التى تقوم بها ، وهى موجهة ضد الدولة اليهودية) . ويزعم أولئك المدافعون عن إسرائيل بأن قيامها إنما كان نتيجة طبيعية لكراهية العالم لليهـــود وللرغبة فى القضـــاء عليهم . ويرى المؤلف أنه (إذا كان العالم يهدف فعلاً إلى القضاء على اليهود .. فإن المرء ليعجب حقاً كيف أنهم ما يزالون أحياء ، بل إنهم فى صـــورة مختلفة عن كثير من البشـــر ، فهم على الأقـــل لا يتعرضون للمجاعات) .

إن الأسطورة الزاعمة بأن العالم كله قد تعاون مع النازية لإبادة اليهود تمثل فى رأى بوز أفرون فى كتابه "دولة إسرائيلية أم وطن إسرائيلى ، الناشر بلومنجتون ١٩٩٥" ما يمكن أن يكون نوعاً من استدامة عملية توليد مقصودة لجنون العظمة . ولهذا .. فإن كل شيء مباح لليهود فى علاقاتهم بالشعوب الأخرى . وهذه العقيدة هى التى وفرت لإسرائيل الرخصة الكاملة لارتكاب ما تراه من العدوان والطغيان دفاعاً عن النفس ، وفى جميع الحالات لا يمكن أن يلقى أى لوم على اليهود من أعمال عدوانية فى بلورة تلك الظاهرة ، إنما هو متهم (بمعاداة السامية) والواقع أن اليهود على اعتقاد جازم بأن تلك الظاهرة إنما هى من قبيل اللامعقول ، وأن الهولوكوست لم يتم لخطأ هم الذين ارتكبوه ، وإنما كان شراً من أجل الشر نتيجة لهوس العقيدة النازية .

وهكذا وفرت عقيدة كراهية العالم وتفرد اضطهاد الهولوكوست حصانة لإسرائيل ويهود أمريكا من أى رقابة شرعية . وفى هذا الصدد يقول داعية الهولوكوست الشهير (إيلى وسلر) (لقد تعرضـــنا دائماً للتهديد خلال ألفين من الســـنوات ، لماذا ؟ لا لأى سبب ... فعداوة العرب لإسرائيل ناجمة عما نحن عليه ، وعما يمثله وطننا القومى قلب حياتنا ، وحلم أحلامنا . وحينما يحاول أعداؤنا القضاء علينا ، فإنهم سيفعلون ذلك بالقضاء على إسرائيل) أما بالنسبة لعداوة السود ليهود أمريكا (فإنه من الغريب أن هؤلاء السود قد استمدوا إلهامهم منا فى الكفاح من أجل حقوقهم ، لكنهم لا يقدمون لنا الشكر ، بل يهاجموننا .. وهكذا نجد أنفسنا فى موقف صعب للغاية .. كما نجد أنفسنا مرة أخرى كبش فداء ، تلقى علينا المسئولية من كل جانب . وأنى لأشعر بالأسى نحو هؤلاء الســـود .. لقد كان عليهم أن يتعلموا منا شـــيئاً واحداً ، ألا وهو الامتنان والعرفان ، فليس هناك شعب فى العالم يدرك قيمة الشكر والعرفان كما ندركه نحن) وردد كاتب صهيونى آخر المعنى نفسه (نحن دائماً عرضة للعقاب ، مع أننا دائماً أبرياء ... ذلك هو العبء الذى نحمله كيهود) .. وكتب آخر يقول (إن معاداة السامية انطلقت من حقد الأغيار "غير اليهود" واستنكارهم لأعداد قليلة ، تتفوق على أعداد كبيرة من المسحيين فى عالم السوق) .

وفى استعراضه لكثير مما كتب من أدبيات الهولوكوست وتفرد وقائعه ، يلحظ المؤلف أنه مليء بالدجل والاحتيال والنفاق ، وفى كثير منه وصف للشعوب التى اضطهد فيها اليهود أثناء الحرب بالسادسة والرغبة فى التعذيب ، وارتكاب الفحشاء مع العنف ، ثم أن هناك من الكتاب من ادعى أنه من الناجين من الهولوكوست ، لكنه تبين أخيراً أنه كان يعيش خارج ألمانيا طوال مدة الحرب ، وأن ما كتبه إنما كان من نسج خياله.. وقد اضطر أحد الناشرين إلى أن يسحب كتاباً من تلك الكتابات عام ١٩٩٩، حيث ادعى مؤلفه بأنه قد عايش اضـــطهاد وآلام الهولوكوست، ثم تبين أنه " سرق الهولوكوست " وأن ما كتبه كان اختراعاً وتلفيقاً ، ثم ظهر فيما بعد أنه ليس يهوديًّا ، وأنه عاش فى سويسرا خلال فترة الحرب العالمية الثانية. وقد أطلق المؤلف على مثل تلك الكتابات (تسييس الذاكرة).

ويشير المؤلف إلى الخداع فى الحقائق التاريخية فى بعض الكتابات الصهيونية ويورد على سبيل المثال ما خصصته (دائرة معارف الهولوكوست ، تحرير إسرائيل جتمان) للدور الخطير الذى قام به المفتى الحاج أمين الحسينى فى وقائع الهولوكوست . وهذا يجده المرء مجسَّماً فى متحف الهولوكوست الإسرائيلى، (حيث يخلص الزائر له إلى أن ثمة تشابهًا بين الخطة النازية لإبادة اليهود ومظاهر عداوة العرب لإسرائيل) ، وتبرز ذكرى المفتى مرة أخرى فى اجتماع عقده أحد القساوسة، ودعا لـــه ممثلين من جميع الأديان ، فلم يكن من (وسلر) الداعية الأشهر شهرة للعقدة الصهيونية إلا أن اعترض على وجود قاضٍ مسلم فى قاعة الاجتماع ، معلناً أن المعنى كان صديقاً لأحد كبار قادة النازية هنريش هملر . ويتساءل المؤلف بأنه ما دام دور المفتى كذلك لماذا لم تقدم إسرائيل الحاج أمين الحسينى إلى المحاكمة ، كما فعلت فى حالة ايخمان الذى اعتقلته فى الأرجنتين بعد عدة سنوات من لجوئه ، مع أن المفتى كان يعيش طليقاً على مقربة من حدودها فى لبنان بعد نهاية الحرب العالمية الثانية .

ومن بين جملة الكتاب المتحيزين للعقيدة الصهيونية المؤرخ المشهور برنارد لويس فى كتابه (السامية وأعداء الساميين)، والذى حاول فيه أن يلطخ تاريخ العرب الحديث بتصالحه مع التوجهات النازية والعداء للسامين .

ويمتد الإرهاب الفكرى إلى صاحبنا مؤلف (فنكلستاين) ، حين اتفق مع ناشر شركة (متروبوليتان) لطبع مقالين لـــه فى نقد محتويات كتاب (جولد هاين) من أكبر أنصار أيديولوجية الهولوكوست وأصدر الناشر إعلاناً بأنه سوف يقوم بنشر هذين المقالين قريباً . وفى سرعة فائقة محمومة قامت مجلة (فورورد) اليهودية فى مقالها الافتتاحى بالتهديد بالإعلان عن أن مجلة (متروبوليتان) تعد لإخراج كتاب من تأليف (نورمان فنكلستاين) ، ذلك المعارض الشرير لدولة إسرائيل وادعت مجلة (فورورد) بأن أحكام فنكلستاين مملوءة بالسموم والتحيز الفاحش ، وأنها ملطخة بموقفه المعادى للصهيونية . كذلك لم يتردد (إبراهام فوكسمان) رئيس " عصبة الدفاع عن التشويه " لأى شأن يهودى إلى أن يطلب من الناشر التوقف عن طباعة الكتاب ، مدعياً بأن جوهر القضية ليس الحكم بأن ما يقـــوله جولدهاين صحيح أم خاطئ ، لكـــن الأهم هو إدراك ما " النقد المشروع " – بالنسبة لليهود طبعاً – ، وما النقد الذى يتجاوز الحدود والمحرمات ، وجاء رد الناشر (بلى أن القضية وبكل الدقة فعلاً هى معرفة ما إذا كانت دعاوى جولد هاين صحيحة أم خاطئة) وتوالى الهجوم على فنكلستاين ، ووصل الانحطاط فى اتهامه بأن عداوته للسامية قد قادته إلى القول بأن كل ضحايا النازية ، بما فيهم أفراد أسرته تستحق الموت .

ثم ينتهى المؤلف إلى تقرير أنه رغم الدعاوى الفارغة والمزيفة التى كانت تدور بها طاحونة الهولوكوست ، إلا أنه نتيجة الدعاية اليومية والمستمرة فى كل موقع والهجوم على من يتعرض لها بالنقد إلى درجة الإرهاب الفكرى ، لم يكن مستغرباً أن يصبح من يشككون فى صحة الدعاوى قلة قليلة ، وكأنما كان يريد أن يقول : أكذب أكذب أكذب ، وسوف يصبح كلامك صحيحاً آخر الأمر ..

ثم يتساءل المؤلف عن سبب ترسخ عقيدة الهولوكوست واعتبار إسرائيل رمزها المتجسد ، ويبادر بالإجابة على أنها قد أنشأت صناعة الهولوكوست : لقد كانت عاملاً مهمًّا فى إصدار مئات الكتب والمجلات والمقالات وملأت أعمدة فى كبريات الصحف جعلت من الموضوع مادة وافرة للنشر، كما أنها مثلت قوة سياسية ضاغطة لخدمة

إسرائيل ، وتكوين أكثر من ١٠٠ مؤسسة صهيونية لخدمة المصالح اليهودية ودعم الدولة الإسرائيلية ، ولها رابطة عامة تعرف باسم رابطة مؤسسة الهولوكوست ، وأنشأت عشرات من مراكز البحوث ، وكراس للأستاذية الجامعية لتدريس مقررات عن الهولوكوست فى اشهر الجامعات الأمريكية وعلى رأسها جامعة هاردفارد ويبل .

وقد كان لتلك المقررات أهمية بالغة كما أشارت إلى ذلك مجلة (كومنتري) اليهودية ، حيث أوضحت فى إحدى مقالاتها ، بأن ما كان يزوده الأساتذة اليهود لطلابهم من معلومات عن الهولوكوست طغى على معرفتهم بالحرب الأهلية فى أمريكا، لذلك كانت وقائع الهولوكوست أهم الأحداث التاريخية التى يتردد صداها فى الجامعات الأمريكية . كذلك تشير بعض استطلاعات الرأى إلى أن أعداد من يستطيع التعرف على تفاصيل وقائع الهولوكوست بين الطلاب أكثر ممن يعرفون وقائع بيرل هاربور – معركة غرق الأسطول الأمريكى فى بحر اليابان أثناء الحرب العالمية الثانية ، أو وقائع إطلاق القنابل على اليابان أثناء تلك الحرب .

أضف إلى ذلك أنه قد نجم عن صناعة الهولوكوست احتفال الولايات الأمريكية كلها (٥٠ ولاية) كل عام فى مجلس نوابها بذكرى حادث الهولوكوست باعتبارها من المناسبات القومية . ثم أن هناك سبع متاحف كبرى للهولوكوست فى بعض الولايات الأمريكية ، وأهمها المتحف التذكارى للهولوكوست فى واشنجتون العاصمة الفيدرالية للولايات المتحدة الأمريكية . وهذا المتحف شاهد ماثل على ما تحتضنه الصهيونية من عنصرية واستعلاء وتزييف لحقائق التاريخ ، كما أنه رمز لدعم الحكومة الفيدرالية للحركة الصهيونية ، وقد أشرت إلى ذلك فى مقالى الأول حين وافق الكونجرس الأمريكى على ميزانية دعم هذا المتحف بالإجماع .

ويطلعنا المؤلف على ظروف إنشاء هذا المتحف الذى يؤكد للزائر فى نشراته بأنه لا علاقة له بالسياسة أو بأى محاولة للدعوة إلى أيديولوجية معينة . بيد أن الواقع مغاير لذلك تماماً ، حين نتفهم ظروف إنشاء المتحف ؛ إذ حدث أن جيمى كارتر ، وهو يعد عدته الانتخابية لرئاسة الجمهورية صرح مرة بأن علينا أن نعترف بالحقوق

المشروعة للفلسطينيين، وفى ذلك الوقت أيضاً كان ثمة معركة دائرة حول طلب موافقة الكونجرس على بيع أسلحة للمملكة العربية السعودية .

ونظراً لمعارضة اليهود كل من هذين الأمرين وانتقادهم العنيف لتصريح كارتر فى الشأن الفلسطينى ، كان على مرشح الرئاسة أن يضيع تأثير تصريحه ، وأن يقدم لليهود ما يضمن له الحصول على أصواتهم فى انتخابه . لذلك أعلن كارتر عن رغبته فى إقامة متحف الهولوكوست الذى كان يطالب به اليهود ، وقام بوضع حجر الأساس لذلك المبنى أثناء زيارة مناحيم بيجن لواشنجتون . وهكذا كفَّر كارتر عن خطيئته الكبرى التى اعتبرها (الكسندر شنابدر) رئيس "المنظمات اليهودية الكبرى" صدمة عنيفة للجاليات اليهودية فى العالم . ويقدم بنا المؤلف بعض الشواهد على التحيز التاريخى فى مشاهد هذا المتحف : منها السكوت عن أى ما يثير أوروبا مما مارسته فى تاريخها من معاداة السامية ، كما أغفل سياسة التمييز فى الهجرة إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية ، وبالغ فى دور الولايات المتحدة فى تحرير ألمانيا من بقايا المعسكرات النازية . وفى الوقت ذاته لم يبرز ما قامت به أمريكا من اجتذاب لهجرة مجموعات من الخبراء والعلماء النازيين، ومن بينهم من ارتكب جرائم حرب .

كذلك أهمل المتحف أى ذكر لمساعى الكونت برناردوت السويدى ممثل الأمم المتحدة فى سعيه لإيجاد حل للاحتلال الإسرائيلى عقب ٦٧ . ومن المعروف أن الرجل اختير وسيطاً لتلك المهمة لأنه أنقذ آلافاً من اليهود من الاضطهاد النازى ، لكن قادة الصهيونية قد استشعروا بأن لديه تعاطفاً مع إنهاء الاحتلال وانحياز للجانب العربى . لذا أمر إسحق شامير رئيس وزراء إسرائيل إذ ذاك باغتياله فى قلب مدينة القدس . وفى هذا الصدد يشير الكاتب إلى ما ادعى به المجلس العالمى لليهود من اتهام كيرت فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدة بالتواطؤ مع النازية فى اضطهاد اليهود فى النمسا ، واعتباره مجرم حرب !! كذلك أهمل المتحف الإشارة لأولئك الذين تعرضوا للتعذيب أو القتل من غير اليهود من مختلف القوميات الأوروبية ؛ ليظل المتحف شاهداً على أن

الهولوكوست كان لليهود ورمزاً لكراهيتهم ومعاداة السامية ، مع أنه الوقائع التاريخية تشير إلى أن حوالى ٥ ملايين من غير اليهود كانوا ضحايا للاضطهاد النازى ، ولم يتخلف المتحف فى إبراز وقائع قيام دولة إسرائيل وشرعيتها على اعتبار أن إسرائيل كانت أرضاً خالية من السكان قبل الاحتلال الصهيونى !! ويركز على درس هام يدفع به إلى ذهن الزائر بأن قيام إسرائيل ، كان هو الرد المناسب على النازية ، وأن من حق الأحياء الناجين من الهولوكوست الصراع من أجل دخول فلسطين لتأسيس دولتهم .

ويبدى المؤلف تعجبه لإقامة متحف للهولوكوست اليهودى فى عاصمة أمريكا ، ويتساءل هل يعقل مثلاً أن يقيم الألمان متحفاً وطنياً فى برلين لا لتذكر الهولوكوست النازى ، وإنما لما أصاب الرقيق الأمريكى الذين استقدموا من أفريقيا من اضطهاد أمريكى أو ما تعرض له الأمريكيون الأصليون (الهنود الحمر) من إبادة . وفى هذا الصدد يشير إلى محاولة الأفارقة الأمريكيين من بعض أعضاء الكونجرس خلال الفترة من (٨٤-٩٤) لإقامة متحف تذكارى لتاريخهم ، لكن تلك المحاولات قد باءت بالفشل نتيجة للمعارضة الشرسة ، التى قام بها اليهود بقيادة ما أسماه المؤلف أحد أساطين اللوبى الصهيونى فى الكونجرس وهو (جيس هيلمز) ، والمعروف أيضاً بعدائه لقضايا العرب .

وهكذا غدت تلك المظاهر والمؤسسات والمتاحف جزءاً من صناعة الهولوكوست، وترسيخ معالمها فى حياة المجتمع الأمريكى . لكنه مما لا يقل أهمية عن ذلك ، إن لم يكن المحور الأهم فى صناعة الهولوكوست ، هو توظيف المنظمات اليهودية أيديولوجية الهولوكوست للحصول على تعويضات عن ثلاث فئات من اليهود الضحايا وأسرهم ، والناجين من معسكرات التعذيب ، ولأولئك اليهود الذين استخدموا كعبيد تم تسخيرهم فى معسكرات العمل الشاق التى أقامتها بعض الدول . ولقد كانت ألمانيا أو أهداف الابتزاز فى مسألة التعويضات . ونظراً للتحالف بين الولايات المتحدة وروسيا منذ بداية الحرب الباردة ، أمكن أن تنتهى المفاوضات بين الألمان والمنظمات اليهودية إلى اتفاقية عام ١٩٥٠ حول دفع تعويضات بلغت قيمتها حتى اليوم حوالى ٦٠ بليون

دولار . وتمت اتفاقية مستقلة مع إسرائيل لدعم وتوطين مئات المهاجرين من اليهود إلى المستعمرات الإســـرائيلية ، ثم كان من بين الاتفاقيات التعويض التفاوضى عام ٨٤ بين الحكومة الألمانية " ومؤتمر المطالب المادية من ألمانيا " وكان من شروط الاتفاقية التى عقدت أن تخصص للأفراد من الناجين ولأسر ضحايا الاضطهاد النازى الذين سقطت أسماؤهم من كشوف التعويضات السابقة . وكان المبلغ لذلك مليون دولار سنويًّا لفترة تمتد اثنى عشر عاماً ، أى ما قيمته كما يقدر المؤلف بحوالى بليون دولار بالأسعار الجارية .

وقد تم التشديد على أن تخصص تلك التعويضات للأفراد الذين حددتهم الاتفاقية، بيد أن شروط الاتفاقية لم يتم احترامها فى "مؤتمر المطالب " الذى سبقت الإشارة إليه، وأن أولئك الأفراد المعنيين لم ينلهم فى الواقع سوى ١٥% من المبالغ المخصصة لهم ، بينما بررت المنظمات اليهودية إنفاق بقية المبلغ فى غير من خصص لهم من الأفراد ، حيث تطلب الأمر فى نظر المنظمة اليهودية تقديم المعونات للمجتمعات ، التى يقيم فيها اليهود مما يعينهم على الاستقرار . واتجه جزء من المخصصات إلى دعم إقامة المستعمرات اليهودية فى إسرائيل ، وإلى تيسير هجرة اليهود من أوروبا الشرقية إليها . والحاصل أن نصيب من تعرضوا للاضطهاد النازى من الأفراد كان نسبة ضئيلة جداً من تلك التعويضات ، ومنهم والدة المؤلف التى لم تنل أكثر من ٣٥٠٠ دولار ، هذا فى الوقت الذى دخـــل فى جيب (سوكيجان) الذى ظل مدة طويلة الأمين التنفيذى " لمؤتمر المطالب " ما قيمته (١٠٥) ألف دولار .

والواقع أن المؤتمر قد طبق قاعدة التعويض للأفراد على بعض الكهنة وبعض القيادات الصهيونية ، التى حصلت على مبالغ طائلة كأفراد من تلك التعويضا ، والتى أصبح المقصود منها كما قال أحد الكهنة (إن معركة التعويضات لم تكن من أجل إقامة العدل وإنما كانت من أجل ابتزاز المال) .

ويؤكد المؤلف فى غير موضع كيف أن قادة اليهود قد (اختلسوا أنصبة الناجين من اليهود مما يدل على أنه لم تكن مسألة التعويضات قضية أخلاقية ، إنما كانت لمجرد

ابتزاز المال) ومن أمثلة إساءة استخدام أموال التعويضات ما حصل عليه عضو الشيوخ السبق (ألفونسو داماتو) باعتباره من المحامين ، الذين أقاموا دعاوى التعويض ضد الألمان والبنوك النمساوية ما قيمته (١٠٣) ألف دولار خلال ستة أشهر . كذلك حصل (لورانس إيجـــلبرج) وزير الخارجيـــة فى ولاية الرئيس بوش على مرتب ســـنوى قيمته (٣٠٠) ألف دولار كرئيس للجنة الدولية للهولوكوست . ويعلق أحد الكتاب اليهود من أعضاء مجلس اليهود العالمى تعليقاً مشحوناً بالمرارة على هذا السفه الذى يتم فيه توزيع تعويضات المضطهدين ؛ إذ يقول (أن ما حصل عليه آلان ستاينبرج فى اثنى عشر يوماً ، إيجيلبرج فى أربعة أيام ، وداماتو فى عشر ساعات يعادل ما تسلمته أمى مقابل ستة أعوام من الاضطهاد النازى) .

وقد استمرت أيديولوجية الهولوكوست فى صناعة الابتزاز الصريح لبعض الدول الأوروبية ، ومن ثم اتجهت فى السنوات القليلة الماضية نحو سويسرا وتكاثرت الادعاءات والاتهامات بأن بلايين الدولارات مازالت تحتفظ بها البنوك السويسرية ؛ مما أودعه لديها اليهود خلال فترة الاضطهاد النازى . ولم تهدأ تلك الحملة الضارية حتى حين قام رئيس الاتحاد السويسرى الرسمى (مايو ١٩٩٥) خلال الاحتفالات بمرور خمسين عاماً على الهولوكوست من اعتذار عما يكون قد جرى من عدم اهتمام سويسرا بإيواء كثير من اليهود فى فترة المذابح النازية .. لكن ذلك الاعتذار لم يكن شفيعاً لسويسرا ولا للبنوك السويسرية ، بل قام المؤتمر العالمى لليهود فى أمريكا بممارسة عضلاته بإبلاغ لجنة البنوك فى مجلس الشيوخ الأمريكى باتهام البنوك السويسرية بإخفائها أرصدة مختلف فئات اليهود الذين أصابهم الاضطهاد النازي، وأنه يتحدث باسم الملايين الستة (الضحايا) الذين لا يستطيعون التحدث باسمهم حالياً .

وإزاء هذا الضغط الأمريكى وخشية على سمعتها العالمية ، أعلنت البنوك السويسرية بأنها قد استطاعت التعرف على ٧٧ رصيداً غير متداولة فى معاملاتها ، وتبلغ قيمتها ٣٢ مليون دولار . وأبدت استعدادها لتقديم هذا المبلغ كأساس للتفاوض حول قيمة التعويضات فيما بعد، لكن ذلك لم يكن مرضياً لشهوة الابتزاز الصهيونى . واتسعت الحملة ضد البنوك السويسرية فى مختلف أنحاء الولايات المتحدة وبين الهيئات

الفيدرالية ، وكل أعضاء الكونجرس من الديمقراطيين والجمهوريين ، لمواجهة السويسريين . وكان شعار تلك الحملة هو إصرارها على مواصلة ضغطها (حتى تستسلم تلك البنوك قائلة هذا يكفي) ، وسرعان ما انحط مستوى الحملة فى التشهير والقذف فى حق سويسرا وبنوكها .

ويورد المؤلف بعضاً من التعبيرات الشائنة فى هذا الصدد ، منها إن دولة يتشرف مواطنوها فخراً بثرواتها التى يحسدها عليها جيرانها كانت تجنى الأرباح الطائلة من أموال الذين أهدرت دماؤهم ، ويتابع الكتاب فى تقديم صور التشهير التى لجأ إليها اليهود مع السويسريين وبنوكهم (إن أولئك المواطنين الذين يتظاهرون بالاحترام والوقار ، وأنهم أكثر شعوب العالم حبًّا فى السلام قد ارتكبوا سرقة غير مسبوقة فى تاريخ الأمم ، وأن عدم الأمانة قانون أخلاقى أحكم السويسريون استخدامه لحماية صورة شعبهم ورخائه) ثم أن المطامع واللاأخلاقية قد غدت لدى بعض البنوك السويسرية أفظع من كثيرين فى هذا العالم .. وأنها قامت بأبشع السرقات فى تاريخ البشرية .. إن السويسريين شعب يفتقد الجاذبية ، ولم يعرف له التاريخ إسهاماً فى عالم الفنون أو فى عالم البطولات القومية ، باستثناء "وليم تل" ، كما لم يعرف له مشاهير فى عالم السياسة ، (وإنما هم جماعة من الخونة المتعاونين مع النازية ، وقد حصدوا أرباحاً من دماء البشرية) .

ويعلق المؤلف على مثل هذه الاتهامات بأنه لم تترك شيئاً يمكن أن يضيفه من الصفات أولئك الذين يتهمهم اليهود بمعاداة السامية ، كما يقول ساخراً بأن (كل شيء له صلة باليهود الصهاينة يعبر عنه بأفضل التفضيل : إنه أعظم بالنسبة لهم أو أسوأ بالنسبة لغيرهم) .

وتتابعت الاتهامات للبنوك السويسرية زاعمة بأنها تاجرت مع النازية فى سبائك الذهب ، التى انتزعها النازيون من اليهود حتى مما كان فى أسنانهم من ذهب ، ومن الساعات الذهبية والأساور وغيرها . وإزاء الضغوط الأمريكية وافقت البنوك السويسرية عام ١٩٩٦ على تقديم (٢٠٠) مليون دولار لصالح المحتاجين من فقراء

الناجين ، فى انتظار نتائج لجنة شكلتها للبحث مستفيض لتلك القضية فى ذلك العام ، كما قامت لجنة البنوك بالكونجرس الأمريكى بتشكيل لجنة أخرى لتقصى حقيقة الأرصدة اليهودية فى البنوك السويسرية ، عرفت باسم لجنة (فولكر) .

يستمر الضغط والتهديد بمقاطعة البنوك السويسرية وسحب ملايين الأرصدة الخاصة بالشركات الأمريكية منها . وفى مايو ١٩٩٧ قامت مدينة لوس أنجلوس فعلاً بسحب مئات الملايين من الدولارات من أحد البنوك السويسرية إنذاراً بعدم التعامل معه . ومرة أخرى ينجح الابتزاز فتقدم البنوك السويسرية (٦٠٠) مليون دولار .. ولكن المنظمات اليهودية أعلنت سخريتها من قيمة هذا التعويض الذى يعتبر إهانة لدماء الضحايا . وأخيراً أذعنت البنوك إلى تقـــديم (١,٢٥) بليون دولار تفـــادياً للمقاطعة، ولما تتطلبه تكاليف التقاضى ، وقد أعلن الرئيس كلنتون وأعضاء الكونجرس والجاليات اليهودية رضاءهم عن هذا التعويض الذى يعتبر أقل ما يمكن تقديمه احتراماً لحقوق الإنسان، (وتصحيحاً للظلم الذى حدث فى الماضى، ذلك لأن الماضى لا ينبغى أن ينسى على حد تعبير الرئيس كلنتون) .

ومن الأمور الصارخة فى صـــناعة الهولوكست ابتزازاً للأموال ما أظهـــرته اللجنـــة الأمريكية (فولكر) بأنها قامت بفحص ٢٥٤ بنكاً من خـــلال سجلاتها لفترة (٦٠) عاماً ، فوجدت أن بعض البنوك السويسرية قد بحثت عن أصحاب أو ورثة عدد من الحسابات المعلقة وقدمتها لأصحابها من اليهود ، وأكدت اللجنة أنه لم يكن فى مقدورها التعرف على أرصدة تتعلق بضحايا الهولوكوست . والأغرب من ذلك إشارتها إلى أن الولايات المتحدة ذاتها ، كانت ملجأ أميناً حول إليه عدد من أرصدة اليهود التى أودعت فى بنوكها ، وقدرت قيمة تلك الأرصدة بحوالى ٦ مليون دولار . واقتضى ذلك أن تحال القضية إلى لجنة البنوك فى الكونجرس . وبعد دراستها تمت الموافقة على الأحقية بمبلغ ٣ مليون دولار فقط . ثم أعاد الكونجرس الموضوع مرة أخرى إلى اللجنة لدراستها مرة ثانية ، وانتهى الأمر إلى اعتماد (نصف مليون دولار) فقط وفاء بقيمة التعويضات المطلوبة . وجاء التبرير بأن عدم الالتفات إلى الأرصدة

اليهودية فى البنوك الأمريكية ، إنما كان من قبيل مجرد الإهمال ، أما بالنسبة للبنوك السويسرية .. فقد جاء ارتكابها لجريمة واضحة . ومن الطرائف التى يشير إليها المؤلف ما أعلنته الصحافة الأمريكية من أن بنكاً فى ولاية نورث كارولينا قد أعاد لوحة فنية ثمينة إلى أسرة نمساوية يهودية ، تدليلاً على الأمانة المطلقة للبنوك الأمريكية .

ومع هذا الاهتمام المتزايد لأمريكا حكومة وشعباً فى تعاطفها ودفاعها عن أيدلوجية الهولوكوست وعن حقوق الإنسان ، يذكرنا المؤلف بمطالبة فيتنام بما أصابها من خراب شامل أثناء الهجوم الأمريكى عليها فى حرب طاحنة دمرت المبانى والزراعة والصناعة . وقتلت آلافاً من البشر وخلفت آلاف من اليتامى والمعاقين والأرامل .

وقد رفضت أمريكا أن تدفع أى نوع من التعويضات إلى فيتنام من جراء هذا التدمير الرهيب . وقد أعلن الرئيس كارتر " إن الدمار كان لدى الطرفين ، بكل تأكيد ليس فى حاجة للاعتذار عن الحرب ذاتها " كذلك كان رد وليم كوهين وزير الدفاع فى رئاسة كلنتون " إن الحرب قد تركت جراحاً لدى كل من الطرفين " وتجيء ملاحظة المؤلف الساخرة بأنه فى الوقت ، الذى هللت الحكومة والكونجرس ورؤساء أمريكا للتسوية مع البنوك السويسرية ، لم يظهر أى اهتمام من أى هيئة فى أمريكا بالنسبة لطلب التعويضات الفيتنامية .

وما تزال صناعة الهولوكوست تمارس ابتزازها ؛ حيث طالبت المنظمات اليهودية فى أغسطس ٩٨ أرباب الصـــناعة فى ألمانيا بما قيمته ٢٠ بليون دولار تعويضـــاً عن أولئك ، الذين استخدموا فى معسكرات العمل الصناعية كرفيق فى أعمال السخرة الشاقة . وهناك محاولات لابتزاز بولندا ومطالبتها بتعويضات عن الأرصدة والممتلكات اليهودية ، ومطالبة النمسا للحصول على تعويضات لضحايا الهولوكوست من الفقراء بمال أودعه اليهود فى بنوكها ، والذى يقدر بحوالى ١٠٠ بليون دولار . وهكذا تستمر المطالبة والابتزاز بعد أكثر من خمسين عاماً من واقعة الهولوكوست ذاتها ، وتلك كانت سياســـة (الإرهاب من خلال أحداث الحرج الشـــديد والصدمة العنيفة من أجل

الابتزاز الصهيونى) كما يقول المؤلف . ولعـــل حملات الابتزاز تمتد إلى دول أوروبا الشرقية يوماً ما .

ما يزال فى الكتاب مادة خصبة لا يتسع المقال لها ، ولعل أهم ما ورد فى خاتمة تساؤلاته عن انشغال أمريكا بأيدلوجية الهولوكوست ، وهى تشهد ، أحياناً ، كثيراً من أنواع الهولوكوست فى مختلف أنحاء أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وما يصاحب ذلك من قتل ودمار ومحاولات إبادة لبعض الأعراق الجنسية . ويذكر على سبيل المثال حمامات الدم فى كمبوديا وجواتيمالا وغزو العراق للكويت ، وما ترتب عليه من موت عشرات الآلاف من الأطفال فى العراق. لقد ترسخت صناعة الهولوكوست فى أمريكا، وحينما سئلت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية عن هذه المأساة بين أطفال العراق كان جوابها (إن الأمر يستحق هذا الثمن) . وها هى سيدة أمريكا الأولى تصرح أثناء زيارتها للضفة الغربية فى فلسطين بأن للفلسطينيين الحق فى إقامة دولتهم ، ثم بعد أن قررت ترشيح نفسها لمجلس الشيوخ الأمريكى عن مدينة نيويورك ، غيرت رأيها تماماً ، بل وعجبت حين امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت على قرار تشكيل لجنة للتحقيق فى الانتهاكات الصارخة والاعتداءات البربرية للقوات الإسرائيلية على العزل من الفلسطينيين خلال الأسابيع الماضية ، وكانت فى تصريحاتها لاجتذاب أصوات اليهود لانتخابها تفضل لو أن الولايات المتحدة قد مارست حق الفيتو. ويستمر المؤلف فى تأكيد مسئولية أمريكا الأخلاقية فى عدم التوقف عن صناعة الهولوكوست ، بل إنه يرى أن عليه أن تنظر إلى آلاف الأنواع من الهولوكوست ، التى تجرى فى عالم اليوم لتقوم بدورها الإنسانى فى معالجتها .. لقد كانت صناعة الهولوكوست صناعة مفلسة على الدوام .

وقد آن الأوان لأن تتوقف تماماً ذكريات الهولوكوست فى أمريكا من برامج المدارس والجامعات ، والحكايات الوفيرة عنها فى نيويورك تايمز ، وفى دراسات بلغت ما يتجاوز عشرة آلاف من الهولوكوست ، لقد آن الأوان حقاً أن تلتفت أمريكا إلى ما يجرى فى العالم من مآس بشرية أخرى ، ومتوجهاً إلى الأمريكيين مؤكداً بأنه من السهل أن ندين جرائم الآخرين ، لكن من الأصعب أن ننظر إلى ما نفعله نحن .